أحمد الشرباصي
المدرس بالأزهر الشريف

# النِّيلُ في ضَوْءِ القرآنِ

مطابع
دار الكتاب العربي بمصر
محمد حلمي المنياوي

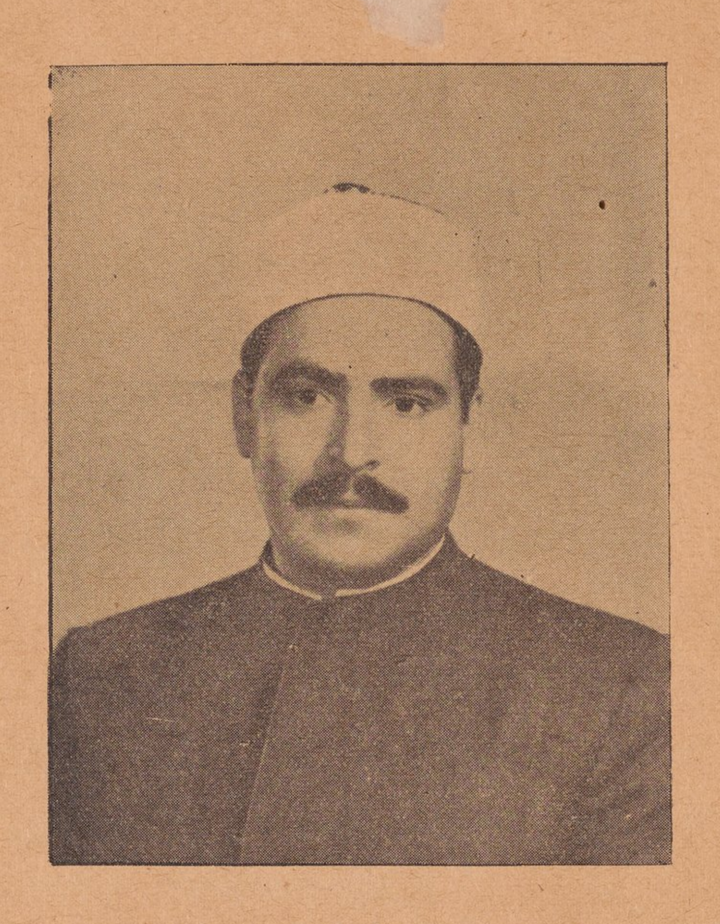
بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ، تمجد فى علاه ، وعزَّ فى حماه ؛ والصلاة والسلام على رسول الله ومن والاه ؛ ربنا عليك توكلنا ، وإليك أنبنا ، وإليك المصير

الطبعة الأولى



١٣٧١ هـ — ١٩٥٢ م



المؤلف

# مقدمة

لنا ونحن أمة أهداف تشغلنا وتثير اهتمامنا ، وهذه الأهداف كثيرة متباينة فى القيمة والمنزلة ، ولعل أكبرها خطراً وأعمقها أثراً هو هدف الوحدة فى الوادى ، وتطهير النيل العزيز المبارك من الطارئين عليه الغرباء عنه ؛ ولقد جرت العادة بيننا زمناً بأن نقيس الأمور بمقاييس مختلفة ، من المصلحة العاجلة ، أو الهوى السانح ، أو الرأى المبتسر ، أو النظرة الضيقة التى تقتصر على المعانى الأرضية أو النزعات المادية ؛ وعلى الرغم مما للمادة من مكانة وشأن ، فنحن أمة لها عقيدتها السماوية السامية ، ولها عواطفها الروحية العالية ، ولها وجداناتها العميقة الوافية ، ولها تاريخها الطويل العريض الحافل بالعظائم ، ولها مبادئها الخُلقية التى تفيض بالمكارم ، ولها دوافعها المثالية التى تستجيب لها عند التوفيق ، فتستقيم على الطريق ، وتبلغ غاية الأمد . .

وكثيراً ما نزن الأمر من أمورنا العامة أو الخاصة بميزان المنفعة أو الرغبة ، فيثير جانباً أو جوانب من عنايتنا ورعايتنا ، ولكننا حينما نزنه بميزان العقيدة الدينية المسيطرة علينا ، والمبادىء القوية التى تتغلغل

فينا ، يزداد جلاله ، ويتضاعف سلطانه ؛ لأننا أمة يجرى الإسلام منها مجرى الدم فى العروق ؛ فإذا ماباركت كلمةُ القرآن — وهو دستور الإسلام — أمراً من أمورنا فقد غدا جزء من عقيدتنا ، نسترخص فيه الأرواح والأموال ، ونستشعر الحزن الممض والحياء المؤسف إذا مافرطنا فى العناية به ، أو الاهتمام له : « صِبْغَةَ اللهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ صِبْغَةً ؟ وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ » .

ووحدة النيل اليوم هى الشغل الشاغل لأبناء الوادى ، يرون فى تحقيقها وصيانتها سببَ حياتهم ، ومفتاح سعادتهم ، ومعقد عزتهم ؛ والقوم الآن قائمون قاعدون حول موضوع النيل ، غادون رائحون فى أمره ، تبدو شواهد ذلك فى حركات المسئولين منا وأحاديثهم ومفاوضاتهم ، كما تبدو فى مباحثات تدور تارة بين الجانب المصرى وبين الجانب الأجنبى ، وتارة بين أبناء الشمال فى الوادى الخصيب و بين أشقائهم أبناء الجنوب المسمى بالسودان ؛ ومن يدرى ، فقد تتمخض الأيام الحاضرة التى نحياها الآن ، أو الأيام المقبلة بعد قليل ، عن نتائج خطيرة لتصرفاتنا وخطواتنا التى نخطوها فى هذا الموضوع الجليل ، وقد نسجل على أنفسنا بأنفسنا — طائعين أو كارهين — ما يكون عبأً لازماً ، نعجز عن الخلاص منه ، أو الطِّب له ، حيناً طويلا من الزمن نجهل مداه ومنتهاه .

لذلك كان واجباً كل الوجوب أن نتبصر منزلة النيل فى ضوء عقيدتنا ، وأن نتبين مكانته فى نور قرآننا ، حتى يزداد إيماننا به ، وحرصنا عليه ، وتضحيتنا له ، وأن نحذر ونحترس ، وأن نقدر لأرجلنا قبل الخطو موضعها ، وأن نستحضر فى أنفسنا — ونحن نكتب مصيرنا ومصير وادينا — جلالَ الله ، وحرمة الوطن ، وقسوة التاريخ ، وحكم الأبناء والأحفاد ؛ ولا يتعارض ذلك أبداً مع وجوب الخطا الحثيثة ، والتصرفات العاجلة الحازمة ، فالرأى الدَّبَرى نكبة ، والفكرة بعد أوانها علقم ، « وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ، فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ ، إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ » .

ويحسن بنا فى هذا المقام أن نعرف الفضل لذويه ، فنقرر أن هذا الاتجاه فى البحث يعود الشكر فيه إلى صاحب المعالى المجاهد الإسلامى الكبير اللواء محمد صالح حرب باشا الرئيس العام لجمعيات الشبان المسلمين العالمية ، فهو الذى شغل نفسَه كما شَغل غيرَه منذ عهد بعيد بقضية النيل ، يتحدث عن جلالها ، ويدعو لنصرتها ، ويغضب من أجلها كلما جاءت فرصة ، أو لاحت مناسبة ، ولقد ظل يبدىء فى ذلك ويعيد ، بغيرة الوطنى وعقيدة المؤمن ، مستهدياً فى ذلك هدىَ الرسول الكريم عليه الصلاة والتسليم ، الذى كان يختص جليل الأمور بفيض من الحديث المردَّد والبيان المكرَّر ؛ حتى ورد أن نساءه حفظن بعض خطبه الهامة من كثرة ترديده لمعانيها ، وأن الصحابة طالما سمعوه يكثر

من تكرار التنبيه على أمر بعبارة واحدة ، فقالوا : « فما زال يكررها حتى ظننا أنه لايسكت » . ورجال السنة يعلقون على كثير من كلماته صلوات الله عليه بقولهم : « قالها ثلاثاً » ...

وهذا قل من كثر من أمثلة التكرار الحسن فى حديث الرسول :

أخرج البخارى أن رجلا قال للنبى صلى الله عليه وسلم : أوصنى . فقال له : لا تغضب . فردَّد مراراً ، فقال : لا تغضب . وأخرج الإمام أحمد أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : إذا غضب أحدكم فليسكت ، قالها مراراً . وجاء رجل إلى النبى من قِبَل وجهه فقال : يا رسول الله ، أى العمل أفضل ؟ قال : حسن الخلق . ثم أتاه عن يمينه فقال : يارسول الله ، أى العمل أفضل ؟ قال : حسن الخلق . ثم أتاه عن شماله فقال : يا رسول الله ، أى العمل أفضل ؟ قال : حسن الخلق . ثم أتاه من بعده ( من خلفه ) فقال : يارسول الله ، أى العمل أفضل ؟ فالتفت إليه الرسول وقال : مالك لاتفقه ؟ أفضل العمل حسن الخلق ، وهو أن لا تغضب ، إن استطعت ! .

وذلك شأن الداعية المخلص فى كل زمان ومكان ، يهيم بدعوته فيفرغ لها ، ويدور حولها ، ويجعلها شغله الشاغل ،وحُلمه العاجل والآجل ، ويتعرض فى سبيل ذلك لما يتعرض له ، من صنوف المتاعب وألوان الظنون . . . وما أدق إشارة الحق إلى مثل هذا حين يقول : « وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغاً » وحين يقول : « وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلاً » .

ألا ليت « النيل » العظيم يجد عند كل ابن من أبنائه ، يرتوى من مائه ، ويتمتع بغذائه ، ويستظل بسمائه ، ويمرح فى نعمائه ، داعيةً يبشر بمجده ويعمل له ، ويحذر من تضييعه ويصد عنه ، فذلك ثمن الحياة ، إن لم يكن فريضة الكرامة :

لا تسقنى ماء الحيـاة بذلة  بل فاسقنى بالعز كأس الحنظل

ماء الحيـاة بذلة كجهنم  وجهنم بالعز أفخر منزل

من أجل هذا رأينا لزاماً علينا أن نشغل أنفسنا فى هذه الآونة بحديث النيل ، لأنه موضوع الساعة ، ولأن نجاح قضيته كما نهوى مفتاح للنجاح فى أمور كُثْر ، لهـا فى تمكين الإسلام وإعزاز العروبة نصيب وأى نصيب . ومن أجل هذا رأينا — ونحن أبناء الفكرة الإسلامية والدعوة المحمدية — أن نتطلع إلى مكانة النيل من خلال منظار قرآنى ومخبار إسلامى ، يلقى ظلاله على الشىء فيباركه ويزكيه ، ويرفع قدره ويعليه ، ويطوى فى رحاب أفقه الاعتقادى الفسيح كلَّ معانى الخير وعوامل النهضة ؛ من وطنية رشيدة ، وقومية عاقلة ، ومنفعة صالحة ، وعزة فيها صلاح الدين والدنيا .

ومن اللائق بمنهج البحث أن نقدم بين يدى حديثنا مقدمات تتعلق بالنيل وجلال شأنه ، حتى إذا ما وصلنا إلى مكانته فى ضوء القرآن رأينا أن الإِســلام الحنيف قد سلَّم القوس لباريها ، وأقر

الأمور فى مجاريها ، فاستوفى الحق لصاحبه ، ولم يتزيد له فيه ، « وَأَنَّ هٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ، وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ، ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ » .

وإنا لنرجو أن تكون تلك الصفحات وأمثالها صيحاتٍ تنبه من غفلة ، وتوقظ من سِنة ، وتجمع من فرقة ، فتهيئ السبيل إلى حياة عزيزة كريمة ، تزدان بالغر الميامين من أبناء النيل الموحدين ، وتعمر واديَه بالفتية النجب من أشبال الإسلام وأبطال الوطن :

الكافلين النيلَ من منبعه إلى المصبْ
الطائرين كالنسو ر ، الدائرين كالشهب
المائلين الملك من كتائب ومن كُتُب

## النيل فى اللغة

جاء فى « لسان العرب » : « والنيل نهر مصر ، حماها الله وصانها ، وفى الصحاح : فيض مصر . وجعل أمية بن أبى عائذ السحابَ[1] نيلاً ، فقال :

(١) السحاب هو — كما قيل — الأجرام التى تحمل المطر بين السماء والأرض ، ينشئها الله سبحانه ، وهو يقول : « وينشىء السحاب الثقال » . وذهب العلماء إلى أنه بخار متصاعد من الأرض ، مرتفع من الطبقة الحارة إلى الطبقة الباردة ، فيثقل ويتكاثف ، وينعقد فيصير سحاباً ؛ قال الثعالبى فى ( فقه اللغة ) : وأول ماينشأ يقال له النشء ، فإذا انسحب فى الهواء قيل له سحاب ، فإذا تغيرت به السماء قيل له غمام ، فإن سمع صوت رعده من بعيد قيل فيه عقر ، فإذا أظل قيل عارض .

أناخ بأعجاز ، وجاشت بحاره     ومُدَّ له نِيلُ السماء المنزَّلُ »

ورُوى أن لفظة النيل عربية مشتقة من « النَّيْل » بمعنى الأخذ والحصول على الشيء ، لأن النيل نوال السماء ، أى عطيتها التى ينالها أهلوها فيسعدون بها ؛ ويقال إن كلمة « النيل » مأخوذة من كلمة « نيلوص » اليونانيـة ، ومعناها الأنهر . ومن الرأى الأول ، وهو أن النيل نوال السماء ، نفهم أن النيل جليل عظيم ، لأن هدية السماء تتطلب جميل التقدير وحسن الرعاية . . . وعلى الرأى الثانى تفيد كلمة النيل معنى الأنهر ، فيكون فى ذات التسمية معنى الوحدة فى النيل ، لأن الاسم نفسه يشمل فروع النيل . . .

## النيل فى التاريخ

والنيل ذو مجد قديم فى التـاريخ ، شاهَدَ الأقدمون فضلَه وخيره فى أعماق العصور الأولى فعظَّموه وهابوه ، ثم أسرفوا فى ذلك بتوالى الأيام واختلاف الأحوال ، فقدَّسوه وعبدوه .

ولقد كان قدماء المصريين يجعلون للنيل احتراماً اعتقادياً ملحوظاً ظاهراً ، وكانوا يقولون : إن النيل مولود من « رع » أى الشمس ، وهى أكبر الآلهة فى ظنهم ، فالنيل إذن عندهم هو ابن الإله الأكبر ؛ وكذلك أطلقوا عليه فى بعض الأحيان أسمـاء آلهة أخرى ، وحاكُوا حوله الأساطير الساحرة ، والقصص الرهيبة ، وكانوا يسمونه المقدس ،

والمقدس الأعلى ، والأب ، وحافظ البلد ؛ وعند بعض منابع النيل كان يوجد معبد يقدَّس فيه النيل ، وكانت له هناك عبادة مخصوصة ، ومناسك وقرابين .

وهذه إحدى النجويات التي وُجدت مسطورة على أوراق البردى التاريخية المعروفة ، وهى نجوى كانت توجَّه إلى النيل ، وتردَّد له أثناء الفيضان ، وهى كما سترى ناطقة بعظيم تقديسهم وإجلالهم للنيل وفيضانه . تقول النجوى :

« أيها الفيضان المبارك ، قُدِّمت لك القرابين والذبائح ، وأقيمت لك الأعياد العظيمة ، وذُبحت لك الطيور ، واقتنصت لك الغزلان من الجبال ، وأعدت لك النار الطاهرة ، وقُدِّم لك البخور والنعم السماوية ، والعجول والثيران ، فتقبَّلْها هديةَ شكرٍ واعترافٍ بفضلك » .

وكانوا يعتقدون أن فيضان النيل يكون بأمر إلهى يوجه إلى النيل فعلاً وحسًّا ، فلا يجرى حتى يأتيه ذلك الأمر .

وقصة « عروس النيل » — بغض النظر عن قيمتها التاريخية — صورة شعرية واضحة لإسراف القوم فى تكريم النيل ، وقد رُوى أن عمرو بن العاص لما فتح مصر حدَّثه قومها عن « عروس النيل » ورجوه أن يقدمها إليه ليفيض ، فرفض وقال : هذا مما لا يكون

فى الإسلام . فتصادف أن ظل النيل — كما يقال — شهرين لا يزيد قليلا ولا كثيرا ، فكتب عمرو إلى الخليفة عمر يعرِّفه ذلك ، فكتب إليه أن أصبت ، وأرسل مع كتابه رقعة إلى النيل فيها :

« من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى نيل مصر ؛ أما بعد ، فإن كنتَ تجرى من قِبَلك فلا تجرِ ، وإن كان الله الواحد القهار هو الذى يجريك ، فنسأل الله أن يجريك » .

قيل : فألقيت الورقة فى النيل ، فجرى فياضاً عقيب ذلك . .

ولقد كان لأتباع « موسى » عليه السلام نظرة خاصة إلى النيل ، لأنهم يتذكرون أن النيل هو الذى حمل موسى رضيعاً حينما ألقته أمه داخل التابوت فى اليم ، فحماه النيل بفضل ربه من القتل على يد فرعون وقومه ، وأوصله إلى بيت فرعون حيث انتصر وبهر .

ولقد تسلسل مديح النيل على ألسنة الخلق منذ العصور الأولى ، كما ذُكر فى الكتب السماوية ، ومن بينها التوراة ، وإلى هذا يشير شوقى فى قصيدته فيقول :

يا نيل أنت بطيب ما نعتَ الهدى ... وبمدحة التوراة أحرى أخلق
وإليك يُهدى الحمدَ خلقٌ حازم ... كَنَفٌ على مر العصور مرهَّق (١)

* * *

ونلاحظ فى جميع العهود التاريخية أن الناس كانوا ينتظرون فيضان

(١) كثير غشيان الأضياف .

النيل بصبر نافد ، ويعلقون على مجيئه أكبر الآمال ، ولا يجبون الضرائب ، ولا يستوفون الحقوق ، ولا يشرعون فى الأعمال الهامة إلا بعد وفاء النيل الذى كان يعد دائماً بشير خير وفاتحة إسعاد .

ولقد كان النـاس يكتوون ببليغ الآلام إذا فتر عنهم النيل أو تخلَّف ، وقليلاً ما يفعل ذلك ، وكأنه الاختبار النادر ، يُقبل أحياناً ليذكِّر النـاس بفضل النعمة ، وما يقابلها من نقمة ؛ ولقد رُوى أن موسى دعا على آل فرعون ، فحبس الله عنهم النيل ، فثارت ثائرتهم ، وجن جنونهم ، واضطرب كيانهم ، حتى فـكروا فى الجلاء عن مصر ، ثم رجوا موسى أن يدعو لهم بفيضانه ، فدعا رجاء أن يؤمنوا ، فجرى النيل .

وفى زمن الملك العادل سيف الدين أبى بكر محمد بن أيوب توقفت زيادة النيل ، فلم يبلغ سوى ثلاثة عشر ذراعا تنقص ثلاثة أصابع ، وشرقت أراضى مصر إلا القليل ، وغلت الأسعار ، وتعذر وجود الأقوات ، فأكل بعضُ الناس بعضا ، وأكلوا الجيف ، وتبع ذلك فناء كبير امتد نحو ثلاث سنوات ، وبلغت عدة من كفنهم العادل فى ذلك القحط اثنين وعشرين ألف إنسان[١] .

---

( ١ ) « نخبة الفكر » لعلى مبارك .

## النيل عند الشعراء

أُولع الشعراء قديماً وحديثاً بالقول فى النيل ، والتغنى بجماله وجلاله، والترنم بروعته و بهائه ، وقد أكثروا من ذلك إكثاراً يدل على ما للنيل من سلطان على عواطف هؤلاء ومشاعرهم .

ولا نستطيع هنا أن نتوسع فى إيراد الشواهد والنصوص مما قالوه ، فذلك فيض وسيع غامر ، فلنقتصر على جانب قليل مما نظموه عن النيل .

هذا أحد الشعراء يصوِّر كيف يقبل النيل على أهليه ، مصافحاً ومسلِّماً ، فيبعث فيهم البهجة والسرور ، والمتعة والحبور ، ثم لا يطيل فيهم مقامَه حتى لا يملوا أيامه ، فيودعهم حين يقضون منه حاجتهم ، فهو كالهلال يستقبله الناس وليداً ، ثم يزداد ويزداد ، حتى يصير بدراً كاملا ، ثم يبدأ فى النقصان حتى يختفى . . . قال :

واهاً لهذا النيل ، أى عجيبة ... بكرٍ بمثل حديثها لا يسمعُ
يلقى الثرى فى العام وهو مسلم ... حتى إذا ما مُلَّ عاد يودع
مستقْبَلٌ مثل الهلال ، فدهره ... أبداً يزيد كما يزيد ويرجع

وهذا ابن النقيب يعرض هذا المعنى بأسلوب أوضح وأفصح ، فيقول :

كأن النيـل ذو فهم ولب ... لما يبدو لعين الناس منه

فيأتى حين حاجتهم إليـه ويمضى حين يستغنون عنه

وهذا صلاح الدين الصفدى يقول :

لم لا أهـيم بمصر وأرتضيها وأعشقْ

وما ترى العين أحلى من مائها إن تدفق ؟

وابن الوردى يقول :

ديار مصر هى الدنيا ، وساكنها همُ الأنام ، فقابلْهـا بتقبيل

يا من يباهى ببغدادٍ ودجلتها مصر مقدمة ، والشرح للنيل !

ومعذرة إلى أشقائنا أبناء بغداد ودجلة ، فما نحن إلا رواة ! .

وابن سلار يقول :

لعمرك ما مصرٌ بمصرٍ ، وإنما هي الجنة العليـا لمن يتذكر

وأولادها الولدان من نسل آدم وروضتها الفردوس ، والنيل كوثر

وابن الصائغ الحنفى يقول :

اِرضَ بمصر ، فتلك أرض من كل فن بها فنونُ

ونيلهـا العـذب ذاك بحر ما نظرت مثلَهُ العيون

و برهان الدين القيراطى يقول :

حلا نيل مصر ، وهو شهد ، ومن يذق

حـلاوته يوماً من النـاس يشهدِ

أيا بردى بالشام إن ذبتَ حسرة وغيظاً فلا تهلك أسى وتجلد

ومعذرة مرة أخرى إلى أشقائنا فى الشام ! . . .

والشريف العقيلى يقول :

أحن إلى الفسطاط شوقاً ، وإننى — لأدعو لها ألا يحل بها القطرُ
وهل فى الحيا من حاجة لجنابها — وفى كل قطر من جوانبها نهر ؟
تبدت عروساً ، والمقطم تاجها — ومن نيلها عقد كما انتظم الدر

وهذا شاعر يتمدح فى ماء النيل ، ويعلو بمكانته ومرتبته حتى يدعى أنه يمحو الآثام ، ويُذهب الأسقام ، ويحيى موات الأجسام ، فيقول :

يا أرض مصر ، تحية وسـلام — وسقاكِ من صوب الغمام ركام
بل أنت غانية عن المطر الذى — يهمى ، فإن النيل فيك غمام
نهر تبـارك ماؤه ، فـكأنه — تُمحى بطهر ميـاهه الآثام
ويكاد لو رشف العليل زلاله — يُشفى العليل ، وتذهب الأسقام
يحيى البلاد بمائه ، فكأنه الرو — ح التى تحيا بهـا الأجسام
إن شابه كدر ففى أكداره — صفو ، وفى فيضانه إنعـام

وهذا شاعر الأزهر الأستاذ « الأسمر » يصور نهضة مصر ، وأثر النيل البارز فيها ، فيقول :

نهضة مرت يداها بالقرى — فجرى النيل عليها كوثرا
وسقى فى صيفه من فيضه — وسقى من بعده ما ادخرا

* * *

تبره الناظم للحب النضيد نثره أبلغ من نظم القصيد
غرد الطير به فوق الصعيد ولدى دمياط، أو عند رشيد

ولقد كان « الأسمر » فى السودان زائراً، فمنعوه من الحديث عن « وحدة النيل »، ولكنه يريد أن يتحدث عنها، ويريد منه الأحبة أن يتحدث عنها، وأكثروا من مطالبته بالحديث عن النيل، وذات مرة سئل عن ذلك، فصمت قليلا ثم قال: وَحِّدُوه . . . وكأنه يطلب من القوم توحيد الإله، بأن يقولوا: لا إله إلا الله؛ ثم صور ذلك فى بيتين من الشعر أحسن فيها التورية، فقال:

جلَّ ربى عن الشريك، فما يجــــرى سوى ما يشاؤه ويريد
يا بنى النيل منبعاً ومصــباً وَحِّدُوه، فديننا التوحيـــد!

وللدكتور أحمد زكى أبى شادى قصيد طويل فى النيل، منه قوله الجميل الدقيق:

يجرى بماء حياتنا وحياته فـكأنما صرنا سَرِىَّ نباته
من موجه يوحى خفوق قلوبنا ودماؤنا من لونه وصـفاته
لولاه كانت مصر قفراً قاحلا وبه ترى الجنات من جناته
لحقوقه التقديس فوق محبة وحقوقنا مقرونة بحيـاته
يا نيل، لن ينسى عهودك شارب مما منحت، وذاكر لحماته

وإن نسينا قصائد وشعراء فلن نستطيع أن ننسى بحال قصيد شوقى

العبقرى فى النيل العظيم . . فهو قصيد فريد يحتاج إلى مفرَد التمجيد ، وواسع التخليد ، ودائم الترديد . . . إنه قصيد طويل الباع والنَّفَس ، امتد وامتد ، حتى زادت أبياته على مائة وخمسين بيتاً ، ليس فيها بيت هزيل ، ولو أراد مريد أن يبسط ما انطوى عليه هذا القصيد من معان ورموز ، و إشارات كلها كنوز ، لاحتاج إلى كتاب خاص . ولله در شوقى ، فقد كان فذاً فى تضمين شعره عصارة علمه ، وخلاصة تجاربه ، ومنتخل فنه وأدبه ؛ وحسبنا أن نقتصر من قصيده ذلك على أبيات نقطفها ، وفيها الظلال المهيبة التى تذكِّر بالخيرات والبركات التى أفاضها الله على يد النيل ، والتى توحى بالصور الدينية التى أحيط بها النيل من غابر الأزمان ، والتى تتلاءم مع ما نريد الدخول فيه بعد قليل من الحديث عن النيل فى ضوء الإسلام والقرآن . . .

قال شوقى رحمه الله تعالى يخاطب النيل :

من أى عهد فى القرى تتدفق ؟ ... و بأى كف فى المدائن تغدق ؟

ومن السماء نزلت ، أم فُجِّرت من ... عليا الجنان جداولاً تترقرق ؟

تسقى وتطعم ، لا إناؤك ضائق ... بالواردين ، ولا خِوانك ينفق

تعيي منابعك العقولَ ، و يستوى ... متخبط فى علمها ومحقق

لو أن مخلوقا يؤلَّه لم تكن ... لسواك مرتبة الألوهة تخلق

جعلوا الهوى لك والوقار عبادة ... إن العبادة خشية وتعلق

فُتنت بشطيك العباد فلم يزل ... قاصٍ يحجهما ، ودانٍ يرمق

سجدوا لمخلوق ، وظنوا خالقاً ... من ذا يميز فى الظلام و يفرق ؟

أصل الحضارة فى صعيدك ثابت ... ونباتها حسن عليك مُخَلَّق

فيه محل للأقانيم العلى ... والجامع، التوحيد فيه تعلق

تابوت موسى لا تزال جلالة ... تبدو عليك له ، وريا تنشق

وجمال يوسف لا يزال لواؤه ... حوليك فى أفق الجلال يرنق

ودموع إخوته رسائل توبة ... مسطورهن بشاطئيك منمق

وصلاة مريم فوق زرعك لم يزل ... يزكو لذكراها النبات و يسمق

وخطى المسيح عليك روحاً طاهراً ... بركات ربك والنعيم الغيدق

وودائع الفاروق عندك ؛ دينه ... ولواؤه ، و بيانه ، والمنطق

بعث الصحابة يحملون من الهدى ... والحق ما يحيى العقول و يفتق

يا نيل أنت بطيب ما نعت الهدى ... و بمدحة التوراة أحرى أخلق

لى فيك مدح ليس فيه تكلف ... أملاه حب ليس فيه تملق

فاحفظ ودائعك التى استودعتها ... أنت الوفى إذا اؤتمنت الأصدق

***

إننا ندعو شباب النيل وجنده الأبرار وفتيته الأطهار إلى أن يحرصوا على تتبع قصائد الشعراء المحدَثين والقدماء عن النيل وواديه ،

فى داوويتهم وكتبهم ، وفى بطون الأسفار القديمة والجديدة ، ليشرحوا صدورهم بمفاخر بلادهم ، وليفتحوا عيونهم على بركات ربهم فى واديهم ، وليدركوا عظمة وطنهم ومجد ديارهم ، وليزدادوا إيمانا مع إيمانهم بجلال نيلهم ، وعدالة قضيتهم ، ووجوب وحدتهم ، فى ظل الله العلى الأعلى ، وفى رحاب الوادى الخصيب .

وليت كل شاب منهم يريد أن يكون له حظ مقسوم فى الوطنية المصرية الإسلامية ، ونصيب معلوم فى الجهاد من أجل الله والوطن ، ومكان ملحوظ بين الكرام الماجدين فى الغد المأمول ؛ يحرص على أن يتتبع مايستطيع تتبعه من هذه الأشعار ، وأن يجمعها و يقيدها ، و يحفظها و يتفهمها و يتغنى بها ، وأن يملأ بها فمه وسمعه وقلبه وعقله ، حتى تكون تلك القصائد النيلية الموقظة وقوداً مباركا مستمراً لوطنيته وعزيمته ؛ فكم من كلمة قوية دفعت إلى تضحيات ، وكم من بيت لشاعر أدي إلى مكرمات ، وإن من البيان لسحراً ، وإن من الشعر لحكمة ، كما قال محمد العظيم عليه صلاة ربه وسلامه . ولله در من هتف :

أقول لها وقد طارت شعاعا ۞ من الأبطال : ويحك لن تراعى

فإنك لو سألت بقاء يوم ۞ على الأجل الذى لك لم تطاعى

فصبراً فى مجال الموت صبراً ۞ فما نيل الخلود بمستطاع !

## النيل فى الحديث الشريف

ونرتفع فى بحثنا إلى مرتبة الحديث النبوى الشريف ، إلى هدى الرسول الكريم عليه الصلاة والتسليم ، لنرى أيضاً أن النبوة الراشدة قد زكَّت « النيل » ، وعطرت الحديث عنه ، ووصلته بعليا جنان الرحمن ، عن معرفة ويقين : « وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهوَى ، إِنْ هُوَ إلا وَحْىٌ يُوحَى » .

جاء فى صحيحى الإمامين البخارى ومسلم فى حديث الإسراء والمعراج الطويل أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ثم رفعت إلى سدرة المنتهى ، فإذا نبقها مثل قلال هجر ، وإذا ورقها مثل آذان الفيلة ، قال جبريل : هذه سدرة المنتهى ؛ وإذا أربعة أنهار : نهران باطنان ، ونهران ظاهران ؛ فقلت : ماهذا ياجبريل ؟ قال : أما الباطنان فنهران فى الجنة ( السلسبيل ، والكوثر ) ، وأما الظاهران : فالنيل ، والفرات »

وجاء فى مواطن من كتب الحديث الصحاح : أن « النيل » نهر من أنهار الجنة ، وأنه ينبثق منها . وكثير من الناس يتساءل : وكيف نوفق بين هذه الأخبار ، وبين ما أصبح من البدهيات ، وهو أن النيل ينبع كما هو مشاهد ومقرَّر من بحيراته الثلاث فى وسط أفريقيا ، وتمده فى بعض السنة الأمطار الغزيرة الهاطلة على جبال الحبشة ؟!

والتوفيق بين خبر الرسول و بين الحقائق الجغرافية سهل ميسور ، وذلك يكون بواحد من ثلاثة أمور :

أولا : أن يكون التعبير النبوى عن النيل وانبثاقه من الجنة لوناً من التشبيه والمجاز ، والمعنى أن النيل عظيم فى خيراته و بركاته ، فكأنه يتفجر من الجنة حاوية النعيم ، ولذلك رآه الرسول فى رحلته السماوية كأنه كائن فى الملأ الأعلى صادر عنه ، ولذلك كانت ثمراته كفؤاً ونظيراً لما فى الجنة والسموات العلى من نعم وآلاء .

ثانيا : بعض اللغويين قد قالوا : إن النيل معناه السحاب ، واستشهدوا بقول الشاعر : « ومُدَّ له نيل السماء المنزل » ، والسحاب يهبط من السماء ، والجنة عند الكثيرين فى السماء ، لأنها جهة العلو المناسبة لرفعة الجنة ، ولأنها مكان الأسرار والغيوب ، فماء النيل حين يهبط من السحاب المرتفع فى جو السماء ، بحكم العوامل الجغرافية المشهورة ، يكون هابطاً من جهة الجنة ، صادراً عن حماها ، فكأنه منها ، لأن المتقاربات كثيراً ما يضاف بعضها إلى بعض .

ثالثاً : لا مانع من أن يكون ماء النيل فى أصله مقبلاً من الجنة نفسها ، أو من سدرة المنتهى ذاتها ، لأننا نشاهد ماء النيل هابطاً فى أمطار غزار ، وهذه الأمطار مقبلة من جهة السماء ، ولكننا لا نجزم بالمكان المعين الذى أقبلت منه ، فطبقات الجو العليا ، ومراتب السماء

البعيدة مما لا نقطع القول عن محتوياتها وخصائصها ، ومن ثَمَّ فلا مانع من أن يكون النيل والفرات — كمنطوق الحديث وظاهره — خارجين من سدرة المنتهى ، وأنهما سارا فى السماء حيث شاء الإله ، ثم نزلا إلى الأرض بعوامل وأسباب خاصة ، ثم درجا فى مسالكهما وفروعهما ، ثم خضع ماؤهما بعد ذلك لما نعرف من عوامل طبيعية وخواص جغرافية . . .

إن هذا لا يمنعه العقل فى الأصل ، لأن العقل الرشيد لا يحيل ما غاب عنه ، وخاصة إذا كان أصله الجواز وعدم الاستحالة ، ويؤيده الخبر الصحيح كما سبق .

ومهما كان التأويل فى الحديث النبوى الشريف ، ومهما كانت طريقة التوفيق بينه وبين معلوماتنا الحديثة ، ففى تعبير النبوة بأن النيل من أنهار الجنة أو نابع منها تمجيد للنيل أى تمجيد ، لأنه يصل النيل بغاية الفضل وهو الفردوس المقيم : « وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِىَ الْحَيَوَانُ[1] لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ » .

هذا وقد روى ابن يونس من طريق حفص بن عاصم عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « النيل وسيحان وجيحان والفرات من أنهار الجنة » .

وعن يزيد بن أبى حبيب عن أبى الخير عن كعب الأحبار أنه كان

---

(١) أى الحياة التامة الكاملة الدائمة .

يقول : « أربعة أنهار من الجنة ، وضعها الله عز وجل فى الدنيا ، فالنيل نهر العسل فى الجنة ، والفرات نهر الخمر فى الجنة ، وسيحان نهر الماء فى الجنة ، وجيحان نهر اللبن فى الجنة » .

وعن أبى جنادة الضبى أنه سمع علياً يقول : النيل فى الآخرة أغزر ما يكون من الأنهار التى سمى الله عز وجل .

## النيل فى القرآن الكريم

ثم نرتفع فى حديثنا ، ونرتفع غاية الارتفاع ، إلى كلام العزيز الحميد ، وقرآنه الكريم المجيد ، لنتبين حديث النيل فى هذا الكلام الربانى الجليل ، الذى جعله ربه نورَه بين خلقه ، وداعيته بين عباده ، وأعطاه من الجمال والكمال ما جعله عبادةً ودعاء ، وثقة ورجاء ، وأمناً ووفاء ، ورشداً وضياء : « فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ، وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ، إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ، فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ ، لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ، تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ » . . .

القرآن الصادق المصدوق الذى لا يكذب ولا يمين ، ولا يتطرق إلى صدقه الشك أو الارتياب : « وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ حَدِيثاً » ، « وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ قِيلًا » ، « وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ » ، « بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ » ، « مَا كَانَ حَدِيثاً مُفْتَرَى

وَلَـكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ » ، « وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَانًا عَرَبِيًّا لِيُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا » ، « نَزَّلَ عَلَيْكَ الْـكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ » ، « وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْـكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْـكِتَابِ » .

* * *

إن النيل كما نرى ونعرف « ماء » عذب طهور ، والقرآن الـكريم قد ذكر نعمة « المـاء » ممتنا به على العباد فى أكثر من ستين موضعاً ، وكأنه كلمـا جاء ذكر المـاء فى القرآن جاء ذكر النيل معه ، لأن النيل ماء ، بل هو أطيب المـاء ، فكأن النيل قد ذُكر ضمناً ، خلال هذه الستين موضعاً .

وقد يسأل سائل : وما سر هذا التـكرار ؟ . . .

ومع عدم تعرضنا لتفصيل الأسباب والحـكَم التى أدت إلى وجود التـكرار فى القرآن الـكريم ، نكتفى بذكر الحـكمة المناسبة لمـا نحن فيه من حديث . وهى أن القرآن يهتم بتـكرار الجليل من الأمور أو الأشياء ، ويعنى بإعادة ما يريد تثبيته فى القلوب أو العقول ، من جليل المبادىء وخطير الأمور . .

انظر مثلا . . . إن القرآن الـكريم يعرف ما للعذاب من شأن فى التأديب ، وما للإنذار من أثر فى التخويف والتهذيب ، ولذلك يعنى بتـكرار ما يوحى بذلك ويشير إليه ، فيقول عدة مرات فى إحدى

السور : « فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ » . . .

والقرآن يعرف ما فى تيسير الذكر وتوضيح الآيات من شأن جليل فى الادكار والاعتبار ، ولذلك يكرر قوله تعالى : « وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ » ؟ .

وهو يعرف أن الآلاء والنعم التى بثَّها الله فى كونه ، وأنعم بها على خلقه ، تستوجب الإيمان والشكران ، وتباعد عن التكذيب والنكران ، ولذلك هو يعدد هذه الآيات ويسردها تباعاً ، ويكرر مع كل منها قوله تعالى : « فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ » .

ولذلك قال المفسرون إن تكرار هذه الآية فى سورة الرحمن قد حَسُنَ للتقرير بالنعم المختلفة المعدَّدة ، فكلما ذكر الله سبحانه نعمة أنعم بها حذَّر من نكرانها ، ووبخ على التكذيب بها ؛ وذلك كقول الرجل الوفى لغيره المفرط : ألم أحسن إليك بأن أدنيتك وقربتك ؟ ألم أحسن إليك بأن أعطيتك وأنلتك ؟ ألم أحسن إليك بأن صنتك ورعيتك ؟ ألم أحسن إليك بأن فعلت لك كذا وكذا . . إلخ .

والقرآن الكريم يعرف أن قِصص الأنبياء والمرسلين بما اشتملت عليه من جهاد وكفاح ، وصبر مع مشقة ، وبما حدث فيها من أقوامهم من استجابة أو إعراض ، ومن إقدام أو إحجام ، ومن إطاعة أو تمرد واستهزاء ، تفعل فعلها وتؤتى أكلها فى تربية النفوس وتقويم الشعوب

ولذلك هو يكرر قصص هؤلاء ، كلما لاحت مناسبة أو جاءت فرصة .

والقرآن الكريم قبل كل شيء يعرف ما لتوضيح العقيدة ، وتصحيح معنى الألوهية ، والتذكير بالله جل جلاله ، من أثر فريد فى إقامة الفرد والجماعة على صراط الهدى ومَهْيَع التقى ، ولذلك يكثر من الحديث عن التوحيد ، وعن الله ، حتى لقد تكرر لفظ الجلالة وهو « الله » فى القرآن الكريم أكثر من أى لفظ دينى آخر .

وعلى هذه القاعدة تكرر حديث القرآن عن « الماء » حتى بلغ ستين مرة ، إذ لما كان الماء نعمة كبرى من نعم الله الوهاب ، وكان من الواجب على العباد أن يقدروا هذه النعمة حق قدرها ، وأن يرعوها حق رعايتها ؛ كرر القرآن الحديث عن الماء هذا التكرار .

ولسنا بسبيل أن نستقصى الآيات التى ذُكر فيها الماء ، ولا أن نعرض لها بالشرح أوالتوضيح ، فحسبنا أن نثبت طائفة من هذه الآيات، وفيها كفاية للتدليل على شأن الماء :

« وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ » .

« وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ » .

« وَاللهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ » .

« وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ » .

« هُوَ الَّذِى أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَشَجَرٌ » .

« وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِى أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ » .

« وَمَا أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا » .

« وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ، وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ ، رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَٰلِكَ الْخُرُوجُ » .

« وَهُوَ الَّذِى أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ » .

« وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتًا » .

« وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا ، أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا » .

« فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ ، أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ، ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ، فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا وَعِنَبًا وَقَضْبًا ، وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا وَحَدَائِقَ غُلْبًا ، وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ، مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ » .

« أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِى تَشْرَبُونَ ، أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ ؟ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ » .

« قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ »

وما أوضح التهديد فى هذا التعبير ! .

« وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ » ! .

أرأيت ؟ . . لقد قال الحق تبارك وتعالى « أنزلنا » فعبر بتعبير العزة والاقتدار . . . « من السماء » مكان الرفعة والعلاء . ومصدر الخير والبركة . . . « بقدر » . . . يا الله . . . بتقدير ومقدار ، بحكمة وميزان ، بعلم وإحاطة ، فالله يتعالى عن العبث والإسراف ؛ فماؤكم هذا مقدور مقدر ، فصونوه وقدِّروه . « فأسكناه فى الأرض » جعلناه قريباً منكم دانيا لكم ، يجرى فى أنهاركم ، تشربون منه وتشرب دوابكم وزروعكم بفضل الله عليكم ، فاشكروا النعمة وارعوها ، واحفظوا نهركم وذودوا عنه . . وحرروا « نيلكم » لكم ووحدوه ؛ وإلا كانت الأخرى . . . « وإنا على ذهاب به لقادرون » ! . . . يا لطيف ! . . فمن لنا بعدك إذا حرمت ومنعت ؟ ومن الذى يأتينا بماء وقد غاض ماؤك ؟ . . . يا لروعة التعبير الموحى بالعبرة والتذكير ! . . . سبحان من هذا كلامه ! . . .

ويكرم القرآن شأن الماء ، فيجعله عالياً فى الآخرة كما جعله عالياً فى الدنيا ؛ إنه يجعله من فضائل الجنات ، فهو يقول فى محتوياتها : « وَظِلٍّ مَمْدُودٍ ، وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ » .

بل ويرتفع القرآن فى تكريم الماء ويرتفع ، فيجعله نعيماً

« خاصاً » بأهل الجنة ، مقصوراً عليهم فى الفردوس الأعلى يوم القيامة ، يتمتعون برؤيته وشربه وريه وامتلاكه كما يشاءون ، بينما يصطرخ أهل النار ، ويجاهدون ما يجاهدون فى سبيل قطرة منه فلا يجدون : « وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ قَالُوا إِنَّ اللهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ » .

وانظر .. لقد نادى أصحاب النار المعذَّبون ، وجأروا بالنداء والصياح ، يدعون أصحاب الجنة المنعمين فيها : « أن أفيضوا علينا من الماء » ؛ امنحونا جانباً من الماء الكثير الجارى عندكم بلا تقتير أو تضييق ، فإن أبيتم أن تعطونا من الماء ، وهو ما نشتهيه أولَ ما نشتهى ، ونرتجيه أول ما نرتجى ، فأعطونا شيئاً آخر مما رزقكم الله .

أرأيت كيف قدمت الآية ذكر الماء على قولها « مما رزقكم الله » ، وجعلت الماء المقدم مقابلا لكل « ما رزقكم الله » ؟. أبعد هذا تنويه وتكريم ؟ .

ولقد نادى أصحاب النار ما نادوا ، فكان الجواب بلا مراجعة : « إن الله حرمهما على الكافرين » ؛ وكان من الممكن أن يقال « إن الله حرمها » أى الطيبات ، أو « إن الله حرمه » أى الرزق بأنواعه ، ولكنه قال : « حرمهما » بتعبير التثنية ؛ مما يشير إلى أنه جعل الماء هنا نداً ومقابلا لما رزقهم الله .

وما الذى يمنع أن نتذكر هنا أن قوماً أسرفوا فى تقدير الماء فعبدوه فضلوا ، وأن نتذكر أن هذا الإسراف كان فى أول أمره تعظيماً وعرفاناً بالقدر ، ثم شط التقدير فاشتط ؟ .

هناك بعض الناس فى الهند يعبدون الماء ، فيتجرد الرجل من ثيابه ، وينزل إلى الماء ، ويقيم فيه ساعتين ، ويفتت الأزهار والرياحين ويلقيها فيه ، وهو يقرأ ترانيمه ، ويسبح على طريقته ، فإذا أراد الانصراف حرك يده فى الماء ، ونثر منه نقطاً على رأسه ، ثم سجد وانصرف .

وقد حاول الشاعر الحديث أن يعتذر عن مثل هذا ، أو أن يعلل مبعثه ، فقال عن النيل :

لئن كان الأُلى عبدوه ضلوا     فرب هداية تحت الضلال
أحب النيل حب أبى وأمى     وأهوى مصر فوق دمى ومالى

ويهمنا البيت الأول ، وكأن معناه أن القوم اهتدوا أولاً ، إذ قدروا نعمة النيل العظمى حق قدرها ، ولكنهم أسرفوا بعد ذلك فضلوا ، فستر ضلالهُم الطارىء هداهم السابق[1] .

* * *

والنيل « نهر » مبارك الغدوات والروحات ، وللأنهار حديث

---

(١) انظر كتاب « صلوات على الشاطىء » للمؤلف .

جليل طويل فى القرآن المجيد ؛ فقد ذكرها الله ممتناً بها فى نحو خمسين موضعا ، وقد أدركنا الحكمة فى تكرار القرآن ، فلا داعى للعود إلى ذكره ؛ وحسبنا أن نذكر طائفة من هذه المواطن القرآنية التى جاء فيها ذكر « الأنهار » ، وقليل من التدبر المعنى والمناسبة فى كلٍّ يكفى فى الالتفات إلى دقيق الإشارات التى انطوت عليها هذه الآيات ، والتى تكشف لنا عن المنزلة السامية التى جعلها الله سبحانه « للنهر » بين الآلاء ؛ يقول الله تعالى :

« وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ » .

« وَهُوَ الَّذِى مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِىَ وَأَنْهَارًا » .

« أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا ، وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا » .

« وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا » .

والقرآن الكريم كذلك يجعل نعمة « الأنهار » فى طلائع النعم التى يفيضها الله على عباده فى جناته يوم القيامة ، و إنك لتراجع المواطن التى وُصفت فيها الجنات من القرآن ، فترى الوصف بالأنهار وجريانها شائعاً ذائعاً فى هذه المواطن ، حتى كأن الجنة لا تكون جنة إلا بهذه الأنهار ، وكفى ذلك تدليلاً على شرف « النهر » وقيمته فى الدنيا والآخرة . .يقول القرآن :

« إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِى جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ، فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ » .

« وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ » .

« مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِى وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ » .

« أُولٰئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ » .

« وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ » .

« لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ » .

« وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ » .

« فَأَثَابَهُمُ اللهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ » .

« وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ » .

« أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا » .

« بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ » .

« لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ » .

« لَهُمْ غُرَفٌ مِنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ مَبْنِيَّةٌ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ »

« تَجْرِى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ » .

ولا شك أن هذه المواطن التى تحدثت عن الأنهار عامة تنطوى على الحديث عن النيل من طريق غير مباشر ، لأن النيل كما أسلفنا « نهر من الأنهار » ، بل هو خير هذه الأنهار فى الدنيا ، فكأنه ينال الحظ الوفير من حديث القرآن التكريمى عن الأنهار . . .

***

ثم يعمد القرآن إلى التصريح عن النيل بعد التلميح ، و إلى التوضيح بعد التلويح ، و إلى التخصيص بعد التعميم ... فيتحدث عن ذات النيل ، فنراه فى سورة الزخرف يقول :

« وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَاقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِى مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ » ؟ .

الله أكبر ، هذه وثيقة إلهية سماوية قرآنية لا تقبل الجدال ، وهى تنص على أن مصر يستطيل ملكها حتى يشمل النيل الممتد الموحد ؛ إذ قد أثبت فرعون فى هذا المقام — وهو ملك مصرى قديم غابر فى التاريخ — امتلاكه لدولة مصر ، وأن النيل بفروعه وروافده وهو المعبر عنه فى الآية بقوله « الأنهار » ، كما سنعرف بعد قليل ، داخل فى صميم هذه الدولة ، فكأن هذه الدولة ليست دولة الشمال فحسب ، ولا دولة الجنوب فحسب ، ولكنها دولة وادى النيل الموحدة من المنبع إلى المصب .

ولكى ندرك جلال هذه الوثيقة القرآنية المصرية ، وما اشتملت عليه من مغاز ورموز وإشارات ، لابد لنا من أن نتناول ألفاظها الكريمة لفظاً لفظاً ، وكلمة كلمة :

«ونادى» إن النداء ليس همساً ، وليس نجوى ، وليس حديثاً بين شخصين ، وإنما هو جهر وصياح ، وهو جلجلة وإفصاح ، والمرء لا يجهر عادة إلا بما يؤمن به ، ويعتقد أنه حق واقع ، ولا يخشى فيه تكذيباً أو رداً ، فكأن المنادَى به هنا أمر واضح مكشوف ، ثابت معروف ، لا ظنة فيه ولا ريب . ومن الذى نادى ؟ . إنه « فرعون » وكفى . . .

وفيمن نادى ؟ . . نادى « فى قومه » أى جماعته التى تعرفه ، ورعيته التى تطلع على أموره وأحواله ، فلم يناد فى أمة غريبة عنه جاهلة بأموره ، ولم يصح فى شعب بعيد عنه مقطوع منه ، فلا يستطيع أن يكذبه إن كذَب ، بل نادى فى قومه وأهل بلده ، ومعنى هذا أنه لو كان كاذباً فيما يدعيه لراجعوه وأنكروا عليه ، ولو فرضنا أنهم جميعاً سيخافونه ، أو يهابونه حاضراً وهو يقرر الكذب فلا ينكرون عليه ؛ لكان عندهم متسع لهذا الإنكار بعد أن ينصرف عنهم وينصرفوا عنه ، وبعد أن يأمنوا جانب كيده وبطشه ، ولكان هذا الإنكار اتسع وشاع حتى يملأ النواحى والبقاع ، بالطرق الملتوية الكثيرة التى تجيدها الشعوب عندما يريدون أن يذيعوا أمراً دون أن يتعرضوا فيه لكيد مسيطر أو بطش جبار . . .

« ونادى فرعون فى قومه » أى رفع صوته بنفسه — وهذا أدل على العناية بالأمر والاهتمام بالموضوع ، رفع صوته فيما بين قومه ، بعد أن جمع عظماءهم ، ونادى معلناً ذلك فيهم ، لتنتشر مقالته بين الجميع ، ويعظم أثرها فى نفوسهم ، وأمر أتباعه وحاشيته بالنداء بمثل ذلك فى الأسواق البعيدة عنه ، ومجامع الناس النائية منه ، وبذلك كمل النشر والتعميم . . .

وبماذا نادى فرعون ؟ . . . « قال يا قوم أليس لى ملك مصر » ؟ والتعبير بهذا الأسلوب المشتمل على الاستفهام الإنكارى فيه قوة أكثر مما لو قال : إن لى ملك مصر . . . فكأنه يريد أن يقول : إن أمر ملكى لمصر ظاهر واضح ، لو كذَّب به أحد لكان ذلك منكَرا عليه غاية الإنكار ؛ وذلك التعبير كقوله تعالى : « أليس الله بكافٍ عبده » فكفاية الله لعبده ، ولكل عبد من عباده ، أمر واضح ظاهر ثابت ، يجب ألا يكون فيه نقاش أو خلاف ؛ وحسبنا الله ونعم الوكيل . . .

ثم التعبير بقوله « مُلْك » فيه قوة السيطرة والسيادة على مصر موطن النيل ... فهو لم يقل : لى أمر مصر ، ولم يقل : لى ولاية مصر ، ولم يقل لى خير مصر . . . فقد يكون له أمرها وتصريفها ، ولكنه غير مالك لها ؛ وقد يكون ولياً عليها ، ولكن من قبل سواه ، وقد يكون له خيرها ونتاجها وخراجها ، ولا يكون مالكاً لها . . .

ولكنه حين قال : « ملك مصر » أفاد أنه صاحب أمرها، وولى شأنها ، ومرجع خراجها ، وهو مع ذلك سلطانها ومليكها . .

وأى مُلك هذا الذى افتخر به الملك المصرى القديم ، والذى يجب أن يفخر به كل ابن من أبناء النيل ؟ . . . إنه مُلك « مصر » . . . وما مصر ؟ . . إنها أم العالمين ، إنها مهد المدنيات ومولد الحضارات ، إنها مصر التى تدل على العمارة والمدنية حتى بلفظها ، فقد قالت اللغة : المصر الحاجز والحد بين الشيئين والجمع مصور ، ومصر العظيمة حجزت بنيلها جدب الصحراء عن خصب روضتها الغناء . .

وقال القلقشندى : يجوز أن تكون سُميت مصر لكونها حدًّا فاصلا بين بلاد المشرق والمغرب — ليته قال لأنها واسطة عقدهما ! — إذ المصر فى أصل لغة العرب اسم للحد بين الأرضين كما قاله القضاعى ، ومنه قول أهل هجر : اشتريت الدار بمُصُورها ، أى بحدودها . وقيل سميت مصر لأن أول من عمرها بعد الطوفان هو مصر بن بيصر بن حام ابن نوح عليه السلام . . . وقال الحافظ : إنما سميت مصر لمصير الناس إليها . . .

والمصر واحد الأمصار وهى البلاد العامرة . ومصر بلد العمران من قديم الزمان . . . ومصروا الموضع جعلوه مصراً ، وتمصر المكان صار مصراً ؛ ومصر قد مصَّرها بنوها الأوائل فجعلوها زينة المدائن ؛ ولذلك

جاء فى لسان العرب : « ومصر مدينة بعينها سميت بذلك لتمصرها . .
قال سيبويه فى قوله تعالى (اهبطوا مصرا) : بلغنا أنه يريد مصر بعينها .
وقال أبو إسحق : وجائز أن يكون أراد مصر بعينها ، فجعل مصراً اسما
للبلد فصُرف لأنه مذكر ، ومن قرأ مصر بغير ألف أراد مصر بعينها
كما قال : ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين » ! . . .

والمصر فى اللغة أيضا الطين الأحمر ، وثوب ممصر مصبوغ بالطين
الأحمر ، أو بحمرة خفيفة ، وقيل مصبوغ بالعِشْرِق وهو نبات أحمر
طيب الرائحة تستعمله العرائس ، وهذا يذكرنا بماء النيل حياة مصر ،
وبحمرته الجميلة التى يشتهيها قلب الوطنى الغيور أكثر مما يشتهى حمرة
الشفاه اللعس فى الكواعب الغيد . . .

إنها مصر الأرض الطيبة التى سأل نوح ربه — كما رُوى — أن
يسكنه إياها ، لأنها « أمن البلاد ، وغوث العباد ، ونهرها أفضل الأنهار »

إنها « مصر » التى كرَّم الله ذكرها وعطر خبرها ، فقال فى القرآن
عنها : « وأوحينا إلى موسى وأخيه أن تبوآ لقومكما بمصر بيوتا واجعلوا
بيوتكم قبلة وأقيموا الصلاة وبشر المؤمنين » . والتى جعل الله عزيزها
يحفظ حق الغريب المهان ، فقال القرآن : « وقال الذى اشتراه من مصر
لامرأته أكرمى مثواه » . والتى جعلها عرشاً ليوسف ، ومستقراً لأبويه

وإخوته، ومأمنا لهم بعد خوف، وشبعاً بعد جوع، فقال: « وقال ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين ».

إنها مصر التى أوصى النبى بأهلها، فعن أبى ذر رضى الله عنه — كما فى رواية مسلم — أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: إنكم ستفتحون مصر، وهى أرض يسمى فيها القيراط، فإذا فتحتموها فأحسنوا إلى أهلها، فإن لهم ذمة ورحما — أو قال ذمة وصهراً — فإذا رأيت رجلين يختصمان فيها فى موضع لبنة فاخرج منها. قال: فرأيت عبد الرحمن ابن شرحبيل وأخاه ربيعة يختصمان فى موضع لبنة منها.

والقيراط جزء من الفدان، كما أنه جزء من الدرهم والدينار، وهو قديم الشيوع فى مصر، والذمة هى الإيمان بالإنجيل والتوراة، والصهر والرحم القرابة بإسماعيل جد الرسول عليهما الصلاة والسلام، لأن المصريين أخوال إسماعيل، فإن أمه هاجر منهم، وكذلك هناك القرابة بالرسول نفسه، لأن مارية القبطية أم إبراهيم ابن النبى كانت من المصريين.

وفى رواية أخرى: إنكم ستفتحون أرضا يذكر فيها القيراط — وهى مصر — فاستوصوا بأهلها خيرا، فإن لهم ذمة ورحما.

وهناك أحاديث أخرى فى فضل مصر.

ولا شك أن هذا شرف عظيم لمصر والمصريين ، كما أنه كان معجزة للرسول ، إذ تحقق ما قال ! .

إنها مصر الغنية الوفية ، الزاهرة الناضرة ، فى مختلف الأجيال والعصور ، مصر التى كتب الخليفة العادل عمر بن الخطاب إلى واليه عليها عمرو بن العاص يسأله أن يصفها له ، فكتب إليه يقول :

« ورد كتاب أمير المؤمنين — أطال الله بقاءه — يسألنى عن مصر . اعلم يا أمير المؤمنين أن مصر تربة غبراء[١] ، وشجرة خضراء ، طولها شهر وعرضها عشر ، يكنفها جبل أخضر ورمل أعفر[٢] ، يخط وسطها نهر مبارك الغُدُوات ميمون الرَّوْحات ، تجرى فيه الزيادة والنقصان كجرى الشمس والقمر ، له أوان يَدِرُّ حِلاَبُهُ[٣] ، ويكثر فيه ذبابه ، تمده عيون الأرض وينابيعها ، حتى إذا اصلخم[٤] عجاجه ، وتعظمت أمواجه ، فاض على جانبيه ، فلم يمكن التخلص من القرى بعضها إلى بعض إلا فى صغار المراكب وخفاف القوارب ، وزوارق كأنهن فى المخايل وُرْق الأصائل[٥] ؛ فإذا تكامل فى زيادته نكص

(١) لونها أغبر : يقصد صحاريها (٢) أعفر : يقصد الرمل الأحمر
(٣) أى يغزر ويكثر ماؤه .
(٤) اصلخم : اشتد . عجاجه : ماؤه الكثير المتدفق .
(٥) المخايل : جمع مخيلة أى توهم وتخيل . والأصائل : جمع أصيل وهو العشى . درته : أى زيادته وفيضانه . ملة محقورة : يقصد الرومان الذين استعبدوا المصريين وامتصوا جهودهم .

على عقبيه كأول ما بدأ فى جريته ، وطما فى درته ، فعند ذلك تخرج أهل ملة محقورة وذمة مخفورة ، يحرثون الأرض ويبذرون بها الحب ، يرجون بذلك النماء من الرب ، لغيرهم ما سعوا من كدهم ، فناله منهم بغير جِدِّهم ، فإذا أحدق [1] الزرع وأشرق ، سقاه الندى ، وغذاه من تحته الثرى ، فبينما مصر يا أمير المؤمنين لؤلوة بيضاء ، إذا هى عنبرة سوداء ، فإذا هى زمرة خضراء ، فإذا هى ديباجة رقشاء [2] ، فتبارك الله الخالق لما يشاء . والذى يصلح هذه البلاد وينميها ، ويقر قاطنها فيها أَلاَّ يُقبَلَ قول خسيسها فى رئيسها ، وألا يستأدى خراج ثمرة إلا فى أوانها ، وأن يصرف ثلث ارتفاعها فى عمل جسورها وترعها ، فإذا تقرر الحال مع العمال على هذه الأحوال ، تضاعف ارتفاع الأموال ، والله تعالى يوفق فى المبدأ والمآل » .

فلما ورد الكتاب على عمر بن الخطاب قال : لله درك يا ابن العاص لقد وصفت لى خبراً كأنى أشاهده .

إنها مصر التى تعطر وصفها فى خطط المقريزى حين قيل عنها :

« ووصف بعضهم مصر فقال : ثلاثة أشهر لؤلوة بيضاء ، وثلاثة أشهر مسكة سوداء ، وثلاثة أشهر زمردة خضراء ، وثلاثة أشهر سبيكة

---

(١) أحدق : استدار .

(٢) رقشاء : منقطة : بسواد وبياض .

ذهب حمراء ، فأما اللؤلؤة البيضاء ، فإن مصر فى أشهر أبيب ومسرى وتوت يركبها المـاء ، فترى الدنيا بيضاء ، وضياعها على روابى وتلال مثل الـكواكب ، قد أحيطت بالمياه من كل وجه ، فلا سبيل إلى قرية من قراها إلا فى الزوارق ، وأما المسكة السوداء فإن فى أشهر بابه وهاتور وكيهك ينكشف الماء عن الأرض ، فتصير أرضاً سوداء ؛ وفى هذه الأشهر تقع الزراعات ، وأما الزمردة الخضراء فإن فى أشهر طوبة وأمشير وبرمهات يكثر نبات الأرض وربيعها ، فتصير خضراء كأنها زمردة ، وأما السبيكة الحمراء فإن فى أشهر برمودة وبشنس وبئونة يتورد العشب ، ويبلغ الزرع الحصاد ، فيكون كالسبيكة التى من الذهب منظراً ومنفعة » .

إنها مصر التى قال عنها الـكندى وغيره من المؤرخين[1] : « فمن فضائل مصر أن الله عز وجل ذكرها فى كتابه العزيز فى أربعة وعشرين موضعاً ، منها ماهو صريح اللفظ ، ومنها مادلت عليه القرائن والتفاسير .

فأما صريح اللفظ فمنه قوله تعالى : « اهبطوا مصراً[2] فإن لـكم ما سألتم » . وقوله تعالى يخبر عن فرعون : « أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى » ، وقوله تعالى : « وأوحينا إلى موسى وأخيه أن تبوآ لقومكما بمصر بيوتا واجعلوا بيوتـكم قبلة » ، ومنه قوله عز وجل

---

(١) النجوم الزاهرة ج١ ص ٢٧ . (٢) أى على القول بأن المراد هنا مصر .

مخبراً عن نبيه يوسف عليه السلام : « ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين »

وأما ما دلت عليه القرائن فمنه قوله عز وجل : « ولقد بوأنا بنى إسرائيل مبوأ صدق » ، وقوله عز وجل : « وآويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين » . قال ابن عباس وسعيد بن المسيب ووهب بن منبه وغيرهم : هى مصر ، وقوله تعالى : « فأخرجناهم من جنات وعيون وزروع ومقام كريم » ، وقوله تعالى : « وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التى باركنا فيها » . يعنى مصر ، وقوله تعالى : « كم تركوا من جنات وعيون ، وزروع ومقام كريم ، ونعمة كانوا فيها فاكهين ، كذلك وأورثناها قوما آخرين » يعنى قوم فرعون ، وأن بنى إسرائيل أورثوا مصر . وقوله تعالى : « ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ، ونمكن لهم فى الأرض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون » وقوله عز وجل مخبراً عن نبيه موسى عليه السلام : « يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التى كتب الله لكم ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين » ، وقوله عز وجل مخبراً عن فرعون : « يا قوم لكم الملك اليوم ظاهرين فى الأرض » ، وقوله عز وجل : « وتمت كلمة ربك الحسنى على بنى إسرائيل بما صبروا ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون » ، وقوله تعالى مخبراً عن فرعون : « أتذر موسى وقومه ليفسدوا فى الأرض ويذرك وآلهتك » ، يعنى أرض مصر . وقوله تعالى

مخبراً عن نبيه يوسف عليه السلام : « اجعلنى على خزائن الأرض إنى حفيظ عليم » ، وقوله تعالى : « وكذلك مكّنّا ليوسف فى الأرض يتبوأ منها حيث يشاء نصيب برحمتنا من نشاء » ، وقوله تعالى مخبراً عن بنى إسرائيل : « ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالا فى الحياة الدنيا » ، وقوله تعالى مخبراً عن نبيه موسى عليه السلام : « عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم فى الأرض » ، وقوله تعالى : « أو أن يظهر فى الأرض الفساد » يعنى أرض مصر . وقوله تعالى : « وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى » ، وقوله تعالى : « إن فرعون علا فى الأرض وجعل أهلها شيعاً » ، وقوله تعالى مخبراً عن ابن يعقوب عليه السلام : « فلن أبرح الأرض » يعنى مصر ، وقوله تعالى : « إن تريد إلا أن تكون جباراً فى الأرض » .

فأى احتفال للحديث عن مصر بعد هذا الاحتفال ؟ . .

مصر ذات الموقع الجغرافى الفريد، الذى لامثيل له فى الدنيا، فهى مركز التجارة العالمية المتبادلة بين الشرق والغرب ، لافى العصور الحديثة فحسب ، بل من قديم العصور . . . مصر التى من ملكها فقد تحكم فى العالم .. أليست مفتاح أفريقيا، ومعبر آسيا، وباب أوربا ، والشاملة لقنال السويس والمطلة على البحر الأحمر والبحر الأبيض المتوسط ؟ . .

مصر التى رامها الهكسوس والرومان والفرس والتتار والأتراك ،

والفرنسيس والإنجليز والأمريكان ، وكادوا لها ما كادوا ، ولكنها صبرت لهم وصابرت ، وبقيت رغم الإحن والمحن ، لها قوتها ولها شخصيتها ، قد تكون مريضة ولكنها حية ، وقد تكون بها جراح ولكنها تجاهد ، وقد تكون أمامها عوائق ولكنها تسير ، وتلك طبيعة الشعب الكريم الأصيل .

مصر التى رعت الموسوية ، وحمت المسيحية ، وأعزت كلمة الإسلام !

مصر أم الدنيا ! . . . وكفى !.

* * *

« وهذه الأنهار تجرى من تحتى » . . هذا بيت القصيد ، ومركز الدائرة ، وواسطة العقد . . هذه هى الوثيقة الإلهية القرآنية الصريحة فى أن النيل كل لا يتجزأ ، وأنه منذ القدم لمصر المتحدة بشمالها وجنوبها ، بدلتاها وصعيدها وسودانها ، تحت سلطان واحد ولواء واحد ، لا فرق بين قريب و بعيد ، ولا بين صغير وكبير ، الكل عباد الله ، وأبناء النيل ، وحراس الوطن .

إن فرعون — بغض النظر فى هذا المقام عن كفره وطغيانه — يقرر أن له ملك مصر ؛ وأن « أنهاراً » لا نهراً واحداً تجرى من تحته ؛ وهو يقصد بهذه الأنهار الفروعَ المنبثقة من النيل العظيم كالنيل الأبيض ، والنيل الأزرق ، وبحر الغزال وبحر الجبل ، و بحر الزراف ونهر السوباط ونهر عطبرة وغيره ، ومعنى هذا أن النيل المبارك بفروعه وروافده

داخل فى ملك مصر منذ آلاف السنين ، وتلك إرادة الله ، وما بنته يد الله كيف يجترىء مخلوق على أن يحطمه أو يفصمه ؟ .

ودقق معى فى التعبير القرآنى البليغ هنا ، لترى كيف كان التصريح عن وحدة النيل دقيقاً وعميقاً . . إن القرآن الكريم قد قال على لسان فرعون : « وهذه » ومن قواعد اللغة العربية الأولى أن « هذه » اسم إشارة يشار به للقريب الدانى ، فكأن الأنهار التى يشير إليها ملك مصر هنا أنهار قريبة منه حساً ومعنى ، دانية منه بسيطرته عليها وتصرفه فيها ؛ ولو كانت نائية أو بعيدة لقال « وتلك الأنهار » .

ثم قال « الأنهار » ولم يقل « النهر » مع أن العادة جرت بأن يقال «نهر النيل» . وذلك ليكون الجمع هنا شاملا للفروع التى تفرعت عن النيل ، وأطلق على كثير منها اسم « النهر » أيضاً ، فلا يبقى بعد التعبير بالنهر هنا مجال لقائل أن يقول : إن المقصود نهر النيل بعد أن تنقطع فروعه وتنتهى ، ويصبح مجراه مجرى واحداً ، وهو الكائن فى شمال الوادى .

ثم قال : « تجرى » ولهذه الكلمة هنا دلالة خاصة وقيمة كبرى . إن العادة فى الأنهار أنها لا تكون دائمة الجريان ، بل تجرى حينا أثناء فيضانها أو توفر الماء لها ، ويركد ماؤها عند الجفاف أو انقطاع المدد من الماء عنها ، والأنهار حينما تجرى وتفيض يتجلى فيها مظهر القوة

والعظمة ، وتجرى على يديها الخيرات والبركات ، وتتسع البقاع والمساحات التى تصل إليها وتؤثر فيها ، فتكون أعم حينئذ وأشمل . وأما حين تجف وتركد ولا تجرى ، فإنها تكون قليلة الجدوى محدودة النفع ، وينحسر ماؤها عن كثير من البقاع ، وقد يقل الماء فى بعض فروعها حتى لا يستقيم له وصف النهر بالمعنى الحقيقى الكامل .

ولذلك جاء التعبير « تجرى » ليفيد أن سلطان مصر على النيل وفروعه ليس وقت جفافه وركوده ، بل وقت امتلائه وجريانه ، حتى يشمل السلطانُ ما يمكن من البقاع التى يمتد إليها ماء النيل وهو جار مستفيض هنا وهناك .

ثم قال : « من تحتى » وهذا تأكيد بعد تأكيد لمعنى التملك والسيطرة على النيل وفروعه . . . إنه لم يقل : وهذه الأنهار تجرى بجوارى ، أو أمامى ، أو خلفى ، بل قال : من تحتى . والتعبير بالتحتية يفيد الاستعلاء والاحتواء مع القرب أو الملاصقة .

وهذه آيات قرآنية وردت فيها كلمة « تحت » وهى تجلِّى المعنى المفهوم منها هنا فى صور مختلفة ، قال تعالى :

« لَهُ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى » .

« فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا » .

« وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا » .

« ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا » .

« وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا اللَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ » .

* * *

ثم ختم القرآن الآية على لسان ملك مصر بهذه الخاتمة المؤكدة النافية لكل شك فقال : « أفلا تبصرون » ؟ . . أفلا تنظرون ؟ . . أفلا تشاهدون ؟ . . نعم أنتم تبصرون ما أقوله وتنظرونه وتشاهدونه ، لأننى لا أحدثكم عن أمر غائب عنكم، أو بعيد منكم، أو مجهول لكم ، حتى ترتابوا أو تترددوا فى التصديق أو الموافقة ؛ وإنما أحدثكم عن شىء محسوس ملموس ، مشاهَد لكم ، قريب منكم غير بعيد .

أرأيت إذن كيف كان تقرير وحدة النيل تحت لواء مصر منذ القدم تقريراً صريحاً قوياً مؤكداً ، لا لبس فيه ولا غموض ؟..

تبارك الله رب العالمين ، وتبارك الله أصدق القائلين ، وتبارك الله الذى زكى مصر وطهرها فى الأولين والآخرين ! .

* * *

ومن عجب عاجب أن الله سبحانه قد كذب فرعون فى كثير من ادعاءاته ، ورد عليه كثيراً من أقواله وترهاته ، وصحح كثيراً من أباطيله وَمفترياته ، ولكنه ترك بلا تكذيب حديثه المجلجل عن ملكه لمصر ، وعن سيطرته على النيل الموحد بفروعه وروافده .

ترك هذا التصريح بلا تكذيب ، فكان ذلك إقراراً من الله فى قرآنه المجيد للوضع الطبيعى ، وهو أن مَلك مصر كان يجرى تحت مُلكه النيل وفروعه ، بغض النظر عما لفرعون من سيئات ومنكرات فى غير هذا المقام ، فذلك أمر آخر لايدخل فى حديثنا الآن .

لقد كذب الله فرعون فى ظنه وتوهمه أن « موسى » الرضيع عندما التقطوه سيكون له ولأهله قرة أعين ، أو سيتخذونه ولدا ؛ كذبه الله فى ذلك الوهم ، حين جعله لهم عدواً وحزناً ، فذلك حيث يقول القرآن : « فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ، إِن فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِين ، وَقَالَتِ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ » .

وكذب الله فرعون فى ادعائه العقل والرشاد ، وما كان يتظاهر به من حسن تصريف للأمور ، وجميل تدبير للشئون ، وكمال توجيه للرعية ، فقال القرآن : « وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ ،

إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ، يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ ، وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ » .

وكذبه في دعواه أنه يستطيع عن طريق « الصرح » أن يصل إلى السماء ، وأن يطلع على الله ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ، فقال القرآن : « وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ ، أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَٰهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا ، وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ ، وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ » .

وخذل الله فرعون فى مكره وكيده ، ورد عليه سوء سعيه ، فجعله حطاماً للنار ، بينما نجَّى عبده الصالح المؤمن : « فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ، النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ، وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ » .

وكذبه الله فى كبريائه وغروره ، فأذله بعد تفاخر ، ووضعه بعد تعال وتكاثر : « وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ ، رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا

الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ، قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ » .

وكذبه فى سحره واعتداده بسحرته ، فأبطل ما صنعوا ، ونصر نبيه عليهم ، وأخرج السحرة وهم أتباعه وجنوده من يده : « قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى ، قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى ، فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى ، قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى ، وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى ، فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا : آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى » .

وكذبه فى عزته المدّعاة ، وجعلها سبب وباله ونكاله ، وسخر من السحرة حين حسبوها سبب الغلبة والانتصار : « فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ؟ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذَنْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ، قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ ، فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ ، فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ، فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ ، قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ » .

وكذب الله فرعون فى اعتقاده أنه قادر على اختراق البحر بلا غرق أو بلل ، وإيهامه قومه الذين استخفهم بأنهم ناجون آمنون معه : « وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقاً فِي الْبَحْرِ يَبَساً لَا تَخَافُ دَرَكاً وَلَا تَخْشَى ، فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَاغَشِيَهُمْ ، وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَاهَدَى »

وكذب الله فرعون فى ادعائه الألوهية والربوبية ، وأخذه فى تكذيبه له أخذ عزيز مقتدر ، وبطش به جزاء تألهه الكاذب بطشة جبار منتقم ، قال القرآن : « وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَاعَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِي يَاهَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحاً لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلٰهِ مُوسَى وَإِنِّى لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ ، وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَايُرْجَعُونَ ، فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ »

وقال القرآن أيضاً : « هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ، إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ، اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ، فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى ، وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى ، فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى ، فَكَذَّبَ وَعَصَى ، ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى ، فَحَشَرَ فَنَادَى ، فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى ، فَأَخَذَهُ اللهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى ، إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى » .

وكذب الله فرعون حتى فى نطقه بكلمة الإيمان التى جاءت بعد أوانها ، قال القرآن : « وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْياً وَعَدْوًا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِى آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ؟ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً ، وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ » .

***

كذب الله فرعون فى كل هذا ، وكذبه فى أمور أخرى غير هذا ، ولكنه لم يكذبه فى « وثيقة وحدة النيل » ولم يكذبه فى أن مُلك مصر له ، وأن النيل بفروعه يجرى تحته ؛ فكان ذلك إقراراً لما جاء فى هذه الوثيقة ، و بذلك ثبتت وحدة النيل الذى لا يتجزأ من أقدم العصور بشهادة القرآن الكريم ! . .

***

وأشار القرآن فى موطن ثان إلى « النيل » ، فقد روى بعض المفسرين أن يوم « وفاء النيل » هو اليوم الذى واعد فيه فرعونُ موسى على الاجتماع بالسحرة ، وقد سماه الله فى القرآن « يوم الزينة » ولا شك أن هذه تسمية تطوى فيها معانى الاحتفال والتقدير ، وقدذكر

القرآن على لسان فرعون أن هذا اليوم هو اليوم الذى يحشد فيه الناس ويحشرون ، ويجتمعون فى صعيد واحد .

والناس لا يجتمعون مثل هذا الاجتماع إلا للجليل الخطير من الشئون ؛ وقد كانوا يجتمعون فى ذلك اليوم لإظهار الفرح والمسرة بفيضان النيل العظيم ، وكانوا يتزينون فيه ويتجملون ويتطيبون ، ويأخذون فى أسباب الغبطة والهناءة ، فذلك حيث يقول القرآن الكريم : « قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى » .

قال القلقشندى عن وفاء النيل واحتفال الناس به ما نصه : « فإذا وفى ستة عشر ذراعا ، وهو المعبر عنه بماء السلطان ، كسر خليج القاهرة ، وهو يوم مشهود ، وموسم معدود ، ليس له نظير فى الدنيا ، وفيه تكتب البشارات بوفاء النيل إلى سائر أقطار المملكة وتسير بها البُرُد » . .

***

والقرآن المجيد قد كرّم النيل أفضل تكريم حينما جعله حاملا لموسى وهو رضيع ، وحارساً له وهو وحيد ، فترفق به ، ولم يؤذه تياره ، ولم تطغ عليه أمواجه ، بل صان أمانته ، وحفظ وديعته ، حتى انتهت إلى مستقرها ، وبلغت إلى مأمنها ؛ وأى معنى شعرى جميل يثور فى نفس الرجل القرآنى حينما يقف على شاطىء النيل ، ثم يتذكر ويستحضر

أن هذا النهر قد حمل ذات يوم نبيًّا كريماً ورسولا عظيما ؛ حمله وهو وليد ضعيف الجسم ، موضوع فى تابوته ، ثم ظلت مياه هذا النهر تحمله وتقوده حتى وصل إلى بيت فرعون — وهو أعدى أعداء فرعون — فالتقطوه ، وبدل أن يقتلوه أعزوه وأكرموه ، وتقدرون فتضحك الأقدار ، وربك يفعل ما يشاء ويختار ! ...

استمع إلى القرآن الكريم حين رسم هذه الصورة الرائعة فقال : « وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ ، فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى الْيَمِّ — النيل — وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِى إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ » .

وفى سورة طه يقول الله مخاطبا موسى عليه السلام : « وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ ، إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ ، أَنِ اقْذِفِيهِ فِى التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِى الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِى وَعَدُوٌّ لَهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّى ، وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِى » ! ...

* * *

والله سبحانه يحدد فى مواطن أخرى من القرآن مبلغَ النكبة التى أصيب بها أعداء موسى الكافرون ، حينما كذبوه وعاندوه ، فحرمهم الله من مصر ونيلها وأنهارها ، ووهبها لعباده الصالحين المكرمين ، فنرى فى هذا التحديد تفخيما لخيرات النيل ، وتعظيما لبركاته ؛ وحسبك

أن تسمع معى قوله تعالى : « فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ، وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ، كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ » . .

ما شاء الله ، جلَّ المنعم الوهاب . . . لقد أخرجناهم من كثير وكثير... من « عيون » نابضة فائضة ، « وكنوز » . نعم كنوز والكنوز تشمل ما يستهوى العقول ويأسر الألباب . . . وليس كنزاً واحداً فحسب ، مع أن الكنز قد يشمل العديد من الجواهر والفرائد ... بل كنوز... كنز وكنز وكنز... « ومقام كريم » ووطن عزيز ، وبلد عظيم ، ومستقر شريف ... سبحانك أيها المتفضل الرحيم ...

ويعود القرآن إلى تصوير هذه الخيرات فى مكان آخر فيقول : « كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ، وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ، وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ ، كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ » .

فيعبر بقوله : « كم تركوا » ، وهو يفيد الكثرة الهائلة ؛ أى لقد تركوا كثيراً وكثيراً وكثيراً ...

ويقول : « من جنات » ... جنات لا جنة واحدة ... جنات متراصة متتابعة متلاحقة ، تزحم الوادى الخصيب بالخير العجيب ... « وعيون » ... وعيون تفيض منها مياه الأنهار ، وليس ببعيد أن تكون هذه العيون قد أريد بها الإشارة إلى البحيرات التى ينبع منها

النيل ، فيكون ذلك التعبير دليلا آخر على وحدة الوادى من منبعه إلى مصبه ..

ثم يأتى هنا بكلمة « زروع » وهى لم ترد فى الآية الأولى ، وتأتى هنا جمعاً لا مفرداً ، مع أن كلمة « الزرع » قد تفيد تعدد أنواعه ، ولكن الزرع هنا فى مصر بلد النيل وهبته ، كثير مختلف ألوانه ، صنوان وغير صنوان : « وَهُوَ الذِى مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِىَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِى اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ، وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ » .

وما دام الزرع متنوعاً ومتعدداً وكثيراً وهائلا ، فلتدل على أنواعه كلمة « الزروع » لتكون أقوى وأصرح وأشمل ...

ثم ... « ونعمة كانوا فيها فاكهين » وهذه زيادة أخرى عظيمة وردت فى هذا الموطن ، ولم ترد فى الموطن الأول ؛ وفيها حديث عن النعمة والإنعام ، وعن تمتع القوم بها وتفكههم فيها ، كأنهم حالُّون بها غارقون فيها ، لكثرتها وفسحتها و إحاطتها .. جل جلال المبدع الوهاب !! ..

ثم ... ثم ... ثم « وأورثناها قوماً آخرين » ... أخذناها من المجرمين وأعطيناها للمتقين ، وكذلك التأديب يكون ... يالطيف ، فالله خير حافظاً وهو أرحم الراحمين ، اللهم حوالينا ولا علينا ، اللهم إنا نعوذ بك من سخطك ونقمتك ، اللهم لا تجعلنا طعمة لأعدائك ، ولا حرباً لأوليائك ، واجعلنا من المستخلَفين فى نعمتك ، المتمتعين برحمتك ، واجعلنا من الوارثين : « رَبِّ هَبْ لِي حُكْماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ، وَاُجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخِرِينَ ، وَاُجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ » ...

أين أنتم يا بنى مصر ، يا رجال النيل ، يا فتية الوادى ... هذه سيرة بلادكم فى قرآنكم ، هذه صفة دياركم فى كلام ربكم ، هذه منزلة واديكم فى دينكم ... هذه خيرات أمتكم يُشيد بها خالقكم ؛ فأين أنتم من شكرها وصونها ، والذود عنها ، والتضحية فى سبيلها ؟ . . أين أنتم بوحدتكم وقوتكم وجهادكم يا أصحاب الجنات ، والعيون ، والكنوز ، والمقام الكريم ؟ . . أين أنتم يا ورثة هذا الملك العريض ؟ . .

أذكركم وأنذركم وأحذركم ، فقد أعقب الله وصف بلادكم فى قرآنكم بقوله تعالى : « كذلك وأورثناها قوماً آخرين » . وأخشى ما أخشاه يا ورثة المجد الرفيع ، أن تناموا عن حقوقه وتبعاته ، فيعيد التاريخ نفسه ، وتُنزَع نعم من أيدى جاهلين بقدرها ، ومفرطين فى حفظها ، ومهملين

لشكرها ، و يتردد صوت من القرآن مرة أخرى قائلا عن القوم الآخرين ، كما قال عن القوم الغابرين : « كم تركوا من جنات وعيون ، وزروع ومقام كريم ، ونعمة كانوا فيها فاكهين ، كذلك وأورثناها قوماً آخرين » ! . .

لقد أعذر من أنذر ، و بلغ الناصحُ الأمين ، وأدى النذير العريان : « وقد قدمت إليكم بالوعيد » .

اذكروا يا أبناء النيل ، و يا ورثة هذا الخير العميم ، أن الله أوسع المنة على قوم موسى الذين اهتدوا فيما ورَّثهم من هذه الخيرات والبركات . . أفلا تسمعونه يقول : « وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعَفون مشارقَ الأرض ومغاربها التي باركنا فيها وتمت كلمة ربك الحسنى على بني إسرائيل بما صبروا ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون » . و يقول : «ولقد بوأنا بني إسرائيل مبوأ صدق ورزقناهم من الطيبات» . ويقول : « يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأني فضلتكم على العالمين » ؟ ! .

والقرآن الكريم يحدثنا في سورة يوسف عن النيل العظيم حديثاً جليلا ، يوحي بخطر النيل ، و يشير إلى قيمته ومكانته في البلاد ، وفضله وأثره على العباد . . .

حقيقة إن السورة لم تذكر النيل باسمه الصريح ، ولكن التلميح

هنا أبلغ من التوضيح ، ورب إشارة أقوى فى التبيين والتأثير من عبارة ...

إن مصر — على عهد عزيزها ومليكها الذى حكمها فى زمن يوسف عليه السلام — يجرى نيلها فى سبع سنوات طيبات مباركات ، فيفيض مع جريانه الخيرُ والبر ، ويكثر الثمر والحصاد ، حتى تمتلىء مخازن مصر بالغلال والحبوب ، وحتى يُهرع الناس من المشارق والمغارب ، ومن البلاد المجاورة والأمصار النائية إلى مصر ، ليكتالوا ويمتاروا ، ويزدادوا من الحب والحصاد ، حتى لا تأكلهم المجاعة المنتشرة ؛ وإن يعقوب عليه السلام ليضحى فى سبيل هذا الاكتيال بابنه العزيز عليه المقرّب لديه « بنيامين » ، بعد أن فقد شقيقه الغالى يوسف ، فيسمح باغتراب بنيامين مع إخوته فى سبيل الحصول على الحب من أرض مصر التى وفى لها النيل ، فأعطاها الكثير الغزير الذى سادت به على العالمين .

يظل النيل خلال تلك السنوات السبع وافياً كافياً ، فتسعد البلاد والعباد ، ويجرى الخير فى كل واد ؛ ثم تأتى بعد ذلك سبع سنوات شداد ، وإنما كانت شداداً لأن النيل شح وقل ، فانتشر الجدب وقل النبات ، فكانت الشدة الكبرى .. استنفدت سنواتُ القحط ما ادخرته سنواتُ الخصب، وتعرض الناس لامتحان عصيب ، وموقف

رهيب ، ولو استمر النيل فى قلة مائه لهلك الإنسان والحيوان ، وخرب العامر وتهدم القائم ، ولكن الله تلطف فجاء بعد سنوات الشدة عامٌ أُغيث الناس فيه بالمطر الغزير عند منابع النيل ، فتدفق نميراً غزيراً ، فكثرت الثمار المعصورة كالعنب والزيتون ، وكثرت البقول والحبوب المحصودة ، وكان ذلك بفضل الله وحده الذى أبداه وأجراه على آيته الكبرى فى مصر الخالدة ؛ وهى « النيل » .

وقد جرت السورة الكريمة على تصوير ذلك فى سرد رؤيا لملك مصر حينئذ ، قامت فيها السنابل الخضر واليابسات ، والبقرات السمان والعجاف ، رموزاً لكثرة النبات وقلته ، ورخاء السنوات وشدتها ، فيقول القرآن الكريم :

« وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّى أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُؤْيَاىَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ ، قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ ، وَقَالَ الَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ ، يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّى أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ، قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِى سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ ، ثُمَّ يَأْتِى مِنْ

بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلاً مِمَّا تُحْصِنُونَ ، ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ » .

أرأيت كيف كان النيل عاملا أساسياً فى الرخاء حينما فاض ، وسبباً فى الشدة الشديدة حينما شح وغاض ؟ ! .

ثم إن يوسف عليه السلام بإحكامه الخطة للانتفاع بثمار النيل ، وحفظه حصاده والإنفاق منه بحكمة وحذر ، قد استحق أن يكون مكيناً أميناً على خزائن الأرض وهى مصر ، وأعظمْ بذلك من شأن ومن سلطان . يقول القرآن : « وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِى بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ، فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ، قَالَ اجْعَلْنِى عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ، وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (١) » .

أوراء ذلك إيحاء بجلال النيل ينبوع الله الذى أجراه فى الأرض

(١) يقول التاريخ : وفى زمن العائلة الثامنة عشرة من الفراعنة وفد على وادى النيل بنو يعقوب عليهم السلام ، واستوطنوا المكان زمناً طويلا ، وكان يوسف حينئذ أمينا على خزائن الأرض فى مصر ، وهو الذى تصرف فى حصاد النيل تصرفاً حميداً . وقد بنى أهراء ومخازن كبرى للغلال سميت « الأهراء اليوسفية » ، واتخذ مقياساً لمعرفة زيادة النيل ونقصانه ، وحفر من النيل خليج « المنهى » ، ويقال إنه عمله بالوحى ، وإن ملك مصر لما رآه قال : هذا من ملكوت السماء ! .

ذهبا سائلا ؟ .. أبعد ذلك يبقى شك فى أن مصر هى هبة النيل ، وأن أهلها يوم يفرِّطون فى نيلها يكونون قد فقدوا الحياة ؟ . .

ألا فاعتبروا يا أولى الألباب . . .

## خيرات الوادى

إنك أيها المصرى حين تذهب لتحصى الزروع والثمار والخيرات التى تنبت فى وادى نيلك الخصب الممرع ، تجد فيضاً واسعاً ، تفخر به على سواك ، وتسجد من أجله لله شاكراً أنعمه ، إذ اجتباك وفضَّلك على كثير من خلقه تفضيلا . . .

إنك تجد من حاصلات بلادك الأرز والقمح والذرة والشعير والفول والبرسيم والكتان ، والقطن والتيل والسمسم والعدس والحمص والقصب والبصل والفجل والكراث والثوم ، واليانسون والكراوية والكرفس والبقدونس والشبت ، وغير ذلك .

وتجد من منتجاتها الزيتون والكرنب والقلقاس والباميا والملوخيا والقرع والخيار والطماطم والجزر والخس واللفت والباذنجان والفلفل واللوبيا والفاصوليا .

وتجد من رياحينها وأزهارها الورد والبنفسج والياسمين والفل والنرجس والريحان والقرنفل والسوسن ، وكثير غير ذلك .

وتجد من فواكهها العنب والرمان والبطيخ والشمام والنبق والتوت

والخوخ والمشمش والموز والتين والبلح والبرتقال والكمثرى والليمون والأنبج ( المانجو ) والبشملة والسبوتة والقشطة والكاكى والسفرجل والتفاح ، وغير ذلك .

وقد عقد القلقشندى فصلا فى الجزء الثالث من كتابه : « صبح الأعشى » ذكر فيه زروع مصر بلد النيل ورياحينها وفواكهها وأصناف المطعوم بها ، وقد رأينا من تمام البحث أن ننقل هذا الفصل بنصه قال :

« أما زروعها فيزرع فيها من أنواع الحبوب المقتاتة وغيرها كالبُر والشعير والذرة والأرز والباقلىّ ، والحمص والعدس والبسلا والجُلْبان واللوبيا والسمسم والقرطم والخشخاش والخِرْوَع والسلجم وبزر الكتان والبرسيم وغير ذلك .

وبها قصب السكر فى غاية الكثرة ، والبطيخ والقثاء على اختلاف أنواعها ، والملوخيا والقلقاس واللفت والباذنجان والدباء ، والهِلْيَوْن والقنبيط ، وأنواع البقول المختلفة كالثوم والبصل والكراث والفجل وغيرها ، وعامة زرع حبوبها على النيل عند نزوله عن أرضها ، من أثناء بَابَه من شهور القبط إلى أثناء طوبه منها بحسب مايقتضيه حال الزرع . وربما زرع فيها على السواقى والدواليب ، وأكثر مايكون ذلك فى بلاد الصعيد خصوصاً فى سنين الجدب ، ويزرع فى الفيوم فى غير زمن النيل على نهر المنهى المتقدم ذكره فى جملة الأنهار . ولازرع فيها على

المطر إلا القليل النادر بأطراف البحيرة مما لا عبرة به ، على قلة المطر بها بل فقده بصعيدها .

وأما رياحينها ففيها الآس والورد والبنفسج والنرجس والياسمين والنسرين والبان والليفوفر ، وأزهار المحمضات والريحان الفارسى على اختلاف أنواعه ، والمنثور فيها بقلة ، وإنما كثر بالإسكندرية ، إلى غير ذلك من بقايا الأنواع التى يشق استيعابها .

وأما فواكهها ففيهـا الرطب والعنب والتين والرمان والخوخ والمشمش والقراصيا والبرقوق و التفاح والـكمثرى ، والسفرجل بقلة ، واللوز الأخضر والنبق والتوت والفرصاد والموز ، ولا يوجد فيها الجوز والفستق والبندق والإجاص إلا مجلوبا بعد جفافه ، وإن زُرع بأرضها شىء من ذلك لم يفلح ، والزيتون فيها بقلة ، ولا يستخرج منه زيت البتة ، وإنما يؤكل ملحاً .

وفيها من المحمضات الأترجُّ والحُمَّاض والـكباد والنارنج والليمون على اختلاف أنواعها .

وأما أصناف المطعوم ففيها ما يستطاب من الألبان والأجبان والعسل الذى لا يُسَاوَى حسنا ، ولا يشبهه غيره من سائر الأعسال ، والسكر الـكثير من المـكرر والتبع والوسط والنبات . ومنها يجلب إلى أكثر البلاد . قال فى « مسالك الأبصار » : وقد نُسِىَ به ما كان يذكر من سكَّر الأهواز .

وبها من أنواع الحلوى والأشربة المتخذ ذلك من السكر والأشربة الفائقة ما لا يوجد فى غيرها من الأقاليم .

وبها من لحم الضأن والبقر والمعز ما لا يعادله غيره فى قطر من الأقطار لطافة ولذة .

قلت : ومن محاسنها أن فاكهتها لا يدوم نوع منها فى جميع السنة فيُمَل ، بل يأتى كل نوع منها فى وقت دون وقت ، فتتشوق النفوس إلى طلبه ، ويكون لقدومه بهجة ؛ ولا يُعترض ذلك بدوام أُكُلِ الجنة ، فإن أكلها لا يمل ، بخلاف مآكل الدنيا ؛ ولأهل الرفاهية بذلك فرحة ، وتتعالى فيه فى ابتدائه ، مع أنه يجتمع فى الحين الواحد من الفواكه والرياحين ما لا يحتاج معه فى زمنه إلى غيره .

قال المهذب بن مماتى فى (قوانين الدواوين) : بعثتُ غلاماً ليُحضر من فكَّاهى القاهرة ما وجد بها من أنواع الفاكهة والرياحين ، فأحضر لى منها الورد والنرجس والبنفسج والياسمين والمنثور والمرسين والريحان ؛ والطلح والبلح والجمار والخيار والبطيخ الأخضر .والباقلّى والتفاح والفقوس والأترنج والنارنج والأشباه والليمون والتمرهندى الأخضر والعنب والحصرم .

وقال بعض الجوالين فى الآفاق : طفت أثر المعمور من الأرض ، فلم أر مثل ما بمصر من ماء طوبة ، ولبن أمشير ، وخروب برمهات ،

وورد برموده ، ونبق بشنس ، وتين بئونة ، وعسل أبيب ، وعنب مسرى ، ورطب توت ، ورمان بابه ، وموز هاتور ، وسمك كيهك[١] » اهـ .

وتذكر أن قائل هذا هو الإمام البحاثة الأديب المؤرخ شهاب الدين أبو العباس أحمد بن على بن أحمد بن عبد الله الشهاب بن الجمال بن أبى اليمن المعروف بالقلقشندى ، المولود بقلقشندة ( إحدى مدن القليوبية بمصر ) سنة ست وخمسين وسبعمائة ، والمتوفى بالقاهرة سنة إحدى وثلاثين وثمانمائة هجرية ( سنة ثمان عشرة وأربعمائة وألف ميلادية ) أى منذ خمسمائة سنة ، وفى خلال هذه القرون الخمسة استحدثت مصر فيها ألواناً وأنواعاً شتى من النباتات والزروع والفواكه والرياحين والبقول ، مما يتعب المرء لو حاول له حصراً .

فقل : ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم .

(١) انظر صفحة ٣١١ وما بعدها .

# من ميزات النيل وواديه

لا زلنا نريد أن نضيف إلى ذهن القارىء ميزاتٍ تبدو فى النيل ، وكثير منها له صبغته الدينية التى تجعلنا نحرص كل الحرص على هذا النيل ، ونعتبر الدفاع عنه كجزء من الدفاع عن عقيدتنا وديننا ، لأنه لا عقيدة بدون معتقدين ، ولا يوجد معتقدون بدون وطن، يشملهم ويضمهم ويظلهم ، ولا يوجد وطن بدون دولة تستكمل معانى وجودها وكيانها ، ولا دولة بدون قوة ووحدة ، أو أسباب حياة وعزة . . .

ومن تلك الميزات ما يلى :

١ — أعذب ماء فى الدنيا هو ماء النيل ، ومن شربه حنَّ إليه دائما ، حتى قالوا : إن من ذاق ماء النيل وفارقه لا بد أن يعود إليه .

٢ — يتحدث القلقشندى فى « صبح الأعشى » عن الأنهار فيقول : « وقد وردت الأخبار بأن أفضلها خمسة أنهار ، وهى : سيحون ، وجيحون ، والدجلة ، والفرات ، ونيل مصر ، والنيل أفضل الخمسة وأعذبها ، وأخفها ماء على ما سيأتى ذكره » !.

٣ — روى القضاعى بسنده إلى عبد الله بن عمرو بن العاص أنه قال : « إن نيل مصر سيد الأنهار ، سخر الله له كل نهر بين المشرق

والمغرب أن يمده ، فأمدته الأنهار بمائها ، وفجر الله له الأرض عيونا ، فانتهى جريه إلى ما أراد الله ، فأوحى إلى كل منها أن يرجع إلى عنصره » .

٤ — وروى القضاعى أيضاً بسنده إلى يزيد بن حبيب : أن معاوية ابن أبى سفيان رضى الله عنه قال لكعب الأحبار : أسألك بالله هل تجد لهذا النيل فى كتاب الله[1] عز وجل خبراً ؟ قال : إى والله ، إن الله عز وجل يوحى إليه فى كل عام مرتين ، يوحى إليه عند خروجه فيقول : إن الله يأمرك أن تجرى ؛ فيجرى ما كتب الله له ، ثم يوحى إليه بعد ذلك ، فيقول : يا نيل ، إن الله يأمرك أن تنزل ؛ فينزل .

٥ — مصر هبة النيل حقيقة لا مجازاً ، لأن مصر كما ذكر القدماء كانت ذراعاً من البحر المالح ، وكان الوجه البحرى فجوة من البحر الأبيض ، فجاء النيل بغرينه ( طميه ) حتى سد هذه البقعة ، وكوّنها أرضاً ، ولذلك حينما نحلل طبقات الأرض فى هذه البقعة نجد تكوينها هو تكوين ( الطمي ) المتجمد .

والغرين — بوزن أمير أو درهم — هو ( الطمى ) المعروف ، وهو الطين الرقيق الذى يحمله النيل فى مروره وفيضانه ، ويتركه عند انحسار الماء طبقة على الأرض ، تكون أولاً سوداء ، ثم تميل إلى الصفرة

---

(١) يقصد التوراة .

بعد جفافها بالهواء ، وهذا ( الطمى ) هو سر خصوبة الأرض ، وبتحليله وجدوا فيه العناصر الهامة الفعالة فى الخصوبة والإنبات ، وهى : حمض الفوسفور ، الجير ، المنيزيا ، البوتاسا ، الصودا ، أكسيد الحديد ، حمض الكربون ، وغير ذلك؛ فهو خير سماد تقوى به الأرض وتجود ؛ وتلك نعمة كبرى من نعم النيل .

٦ — قال على باشا مبارك فى كتابه ( نخبة الفكر فى تدبير نيل مصر ) : —

« وأما وادى النيل فهو اسم لما يمكن أن يصل إليه ماؤه ، باعتبار زمن فيضانه ، وهو واقع فى وسط المعمورة ، وقد منحه البارى نعما ومزايا ليست لغيره ، من ذلك طيب هوائه ، واعتدال إقليمه ، لقلة حره وبرده ، وسلامته مما هو موجود فى كثير من البلاد ، من العواصف المقلقة ، والصواعق المحرقة ، والزلازل المدمرة والبراكين وغير ذلك ، مما لا وجود له فى وادى النيل كغيره ، صيفه خريف ، وشتاؤه ربيع ، وحره يشبه حر العراق ، وأرض جهته البحرية تعادل أرض الشام ، يقع فيها المطر والثلج والبَرَد » .

ويقول أيضاً : « وللنيل فوائد وخواص ومشتملات اختص بها ، فمن ذلك عموم نفعه ، فإنه لا يُعلم نهر فى المعمورة يسقى مقدارَ ما يسقيه النيل ، ومنها أنه يُزرع عليه بعد نضوبه ، ثم لا يُسقى الزرع حتى يبلغ

منتهاه ، ومنها أنه موزون على ديار مصر بوزن محرَّر معلوم ، وتقدير مقرر مرسوم ، بحيث لا يخرج عن حده ، ولا يفسد ما يليه ، أو أن طغيانه بخلاف غيره من الأنهار ، ومنها أنه يأتى من الجنوب إلى الشمال ، فيكون تأثير الشمس فيه دائماً ، وأثرها فى إصلاحه متصلا ملازماً ، بخلاف غيره فإنه يأتى من المشرق إلى المغرب ، وليس فى الدنيا نهر يزيد ثم يقف ، ثم ينقص ثم ينضب ، على الترتيب والتدريج ، غيره ، ويزيد عند نقص سائر المياه ، وينقص عند زيادتها ، فيأتى مصر عند اشتداد الحر ويبس الهواء وجفاف الأرض ، فيعدل الفصل ، ويبل الأرض ، ويكسبها الخصوبة لركوبه إياها ، ثم ينزل عند الحاجة إلى نزوله » .

٧ — قال ابن العماد : إن ماء النيل يخوض فى البحر الملح ، ولا يختلط به ، بل يجرى تحتـه متميزاً كالزيت ، ويظهر أحياناً لراكبى البحر .

٨ — فى كتاب « نهاية الأرب » للإمام النويرى : « النيل هو النهر الذى يفيض حينما تغيض الأنهار الأخرى » .

٩ — وفى نهاية الأرب أيضاً : « وهو أخف المياه ، وأحلاها ، وأعمها نفعاً ، وأكثرها خراجاً » .

١٠ — وحكى ابن زولاق أن أحمد بن المدبر لما ولى الخراج بمصر

كشف أرضها وقاسها ، فوجد غامرها أكثر من عامرها[1] فقال : والله لو عمرها السلطان لوفت له بخراج الدنيا .

١١ — وفى (النجوم الزاهرة) حديث عاطر عن مصر وادى النيل وهبته نسوق طرفاً منه :

« وعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : إذا فتح الله عليكم مصر فاتخذوا فيها جنداً كثيفاً ، فذلك الجند خير أجناد الأرض ، فقال له أبو بكر رضى الله عنه : ولم ذلك يارسول الله ؟ فقال : لأنهم وأزواجهم فى رباط إلى يوم القيامة ... وعنه صلى الله عليه وسلم — وذكر مصر — : ما كادَهم أحد إلا كفاهم الله مئونته .

وقال عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما : أهل مصر أكرم الأعاجم كلها ، وأسمحهم يداً ، وأفضلهم عنصراً ، وأقربهم رحماً بالعرب عامة ، و بقريش خاصة .

وقال أيضاً : لما خلق الله آدم مثَّل له الدنيا ، شرقها وغربها ، وسهلها وجبلها ، وأنهارها و بحارها ، وعامرها وخرابها ، ومن يسكنها من الأمم ، ومن يملكها من الملوك ، فلما رأى مصر رآها أرضاً سهلة

---

(١) الغامر الأرض غير المزروعة ، والعامر هو ما يزرع ، أو المكان المعمور المستنبت ، وفى القاموس المحيط : والغامر الخراب ، أو الأرض كلها ما لم تستخرج حتى تصلح للزراعة ؛ وفى أساس البلاغة : ونزل فلان فى معمر صدق أى فى مسكن مرضى معمور ، وجاء فى القاموس : وأعمره المكان واستعمره فيه جعله يعمره ، والمعمر كمسكن : المنزل الكثير الماء والكلأ ، وأعمر الأرض وجدها عامرة .

ذات نهر جارٍ ، مادته من الجنة تنحدر فيه البركة ، ورأى جبلا من جبالها مكسوًّا نوراً لا يخلو من نظر الرب عز وجل إليه بالرحمة ، فى سفحه أشجار مثمرة ، فروعها فى الجنة تسقى بماء الرحمة ، فدعا آدم فى النيل بالبركة ، ودعا فى أرض مصر بالرحمة والتقوى ، وبارك على نيلها وجبلها سبعَ مرات ، وقال :

« يا أيها الجبل المرحوم ، سفحك جنة ، وتربتك مِسْكة ، تدفن فيها عرائس الجنة ، أرض حافظة مطبقة رحيمة ، لاخلتك يامصر بركة ، ولا زال بك حَفَظة ، ولا زال منك مُلك وعز ؛ يا أرض مصر ، فيك الخبايا والكنوز ، ولك البر والثروة ، سال نهرك عسلا ، كثَّر الله رزقك ، ودر ضرعك ، وزكا نباتك ، وعظمت بركتك وخصبت ، ولا زال فيك يا مصر خير ، مالم تتجبرى أو تتكبرى أو تخونى ، فإذا فعلت ذلك عداك ( أصابك ) شر ، ثم يغور خيرك » .

فكان عليه السلام أول من دعا لها بالرحمة والخصب والرأفة والبركة .

وقال عبدالله بن عباس : دعا نوح عليه السلام لابنه بيصر بن حام — وهو أبو مصر الذى سميت مصر على اسمه فى إحدى الروايات — فقال : اللهم إنه قد أجاب دعوتى ، فباركْ فيه وفى ذريته ، وأسكنْه الأرضَ الطيبة المباركة التى هى أم البلاد .

وقال عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما : لما قسم نوح

عليه السلام الأرضَ بين ولده جعل لحام مصر وسواحلها والغرب وشاطىء النيل ، فلما قدم بيصر بن حام و بلغ العريش قال : « اللهم إن كانت هذه الأرض التى وعدتنا على لسان نبيك نوح ، وجعلتها لنا منزلا ، فاصرف عنا وباءها ، وطيِّب لنا ثراءها ، واجمع ماءها ، وأنبت كلأَها ، وبارك لنا فيها ، وتمم لنا وعدك ، إنك على كل شىء قدير ، وإنك لا تخلف الميعاد » وجعلها بيصر لابنه مصر وسماها به ... ...

وقال كعب الأحبار : لولا رغبتى فى بيت المقدس لما سكنت إلا مصر . فقيل له : ولم ؟ . قال : لأنها معافاةٌ من الفتن ، ومن أراد بها سوءًا كبه الله على وجهه ، وهو بلد مبارك فيه لأهله .

وروى ابن يونس عنه قال : من أراد أن ينظر إلى شبه الجنة فلينظر إلى مصر إذا زخرفت وفى رواية : إذا ازدهرت .

وروى ابن يونس بإسناده إلى أبى نضرة الغفارى قال : سلطان مصر سلطان الدنيا كلها ... ... ... وقال : فى التوراة مكتوب : مصر خزائن الأرض كلها ، فمن أراد بها سوءًا قصمه الله . وقال عمرو بن العاص رضى الله عنه : ولاية مصر جامعة تعدل الخلافة .

١٢ — وقال الكندى فى حق مصر — وما يقال فى مصر يقال فى النيل ، لأن مصر هى النيل : — « جبلها مقدس ، ونيلها مبارك ، وبها الطور حيث كلَّم اللهُ تعالى نبيه موسى ، وبها الوادى المقدس ، وبها

ألقى موسى عصاه ، وبها فلق الله البحر لموسى ، وبها وُلد موسى وهارون عليهما السلام ، ويوشع بن نون ودانيال وأرميا ولقمان وعيسى بن مريم ولدته أمه بأهناس[١] . وبها النخلة التى ذكرها الله لمريم ، ولما سار عيسى إلى الشام وأخذ على سفح المقطم ماشياً ، عليه جبة صوف مربوط الوسط بشريط وأمه تمشى خلفه ، التفت إليها وقال : يا أماه هذه مقبرة أمة محمد ، وكان بمصر إبراهيم الخليل وإسماعيل ويعقوب ويوسف واثنا عشر سبطاً .

ومن فضائلها أنها فُرضة[٢] الدنيا ، يُحمل من خيرها إلى سواحلها ، وبها ملك يوسف عليه السلام ، وبها مساجد إبراهيم ويعقوب وموسى ويوسف عليهم السلام . . .

١٣ — ومن تكريم الحديث للنيل المبارك أنه اعتبره نهراً مؤمناً لأن المؤمن يكون محسناً خيِّرا ، فشبه به النيل فى جوده وعطائه ، ولقد أشار إلى ذلك ابن قتيبة فى كتابه ( غريب الحديث ) حين قال : « وفى حديثه عليه السلام : ( نهران مؤمنان ، ونهران كافران ، أما المؤمنان فالنيل والفرات ، وأما الكافران فدجلة ونهر بلخ ) . . . إنما جعل النيل والفرات مؤمنين على التشبيه ، لأنهما يفيضان على الأرض ،

---

(١) فى القاموس المحيط : أهناس كأجناس بلدتان كبرى وصغرى بالصعيد من بلاد مصر بكورة البهنسى . (٢) الفرضة بالضم من النهر ثلمة يستقى منها ، ومن البحر محط السفن ، ومن الدواة محل النقس ( القاموس ) .

ويسقيان الحرث والشجر بلا تعب فى ذلك ولا مئونة ؛ وجعل دجلة ونهر بلخ كافرين لأنهما لا يفيضان على الأرض ، ولا يسقيان إلا شيئاً قليلا ، وذلك القليل بتعب ومئونة ؛ فهذان فى الخير والنفع كالمؤمنين ، وهذان فى قلة الخير والنفع كالكافرين[1] » !.

١٤ — ومما يدل على عظم النيل وجلاله فى التاريخ ، وإيمان الناس بأنه كل شيء فى مصر ، وأنها بدونه لا تساوى شيئا ، أن قوم فرعون كانوا يعبدون فرعون اعتقاداً منهم ، أو إيهاماً منه لهم ، بأنه هو الذى يُجرى لهم النيل ، ولذلك يستحق منهم العبادة ، لأنه — فى ظنهم أو إيهامه لهم — أوجد لهم ما به سبب حياتهم ، ويوم يعجز عن ذلك ، أو لا يفعله لا يستحق عندهم عبادة ولا تقديساً :

أخرج البيهقى فى شعب الإيمان عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : غار النيل على عهد فرعون ، فأتاه أهل مملكته فقالوا : أيها الملك أجر لنا النيل . قال : إنى لم أرض عنكم فذهبوا ثم أتوه فقالوا : أيها الملك ، أجر لنا النيل . قال : إنى لم أرض عنكم . فذهبوا ثم أتوه فقالوا : أيها الملك ، ماتت البهائم وهلكت الأبكار ، لئن لم تجر لنا النيلَ لنتخذنَّ إلها غيرك . قال : اخرجوا إلى الصعيد ؛ فخرجوا ، فتنحى عنهم حيث لا يرونه ولا يسمعون كلامه ، فألصق خده بالأرض ، وأشار

(١) المقريزى ج ١ ص ٥١ .

بالسبابة لله ، ثم قال : اللهم إنى خرجت إليك مخرجَ العبد الذليل إلى سيده ، وإنى أعلم أنه لا يقدر على إجرائه أحد غيرك فأجْره . فجرى النيل جريا لم يجر قبله مثله . فأتاهم ( اللعين ) فقال : إنى قد أجريت لكم النيل ؛ فخروا له سجداً[1] . . .

١٥ — ومن مميزات النيل التى تكررت الإشارة إليها ، وهى جديرة بها ، التدرج فى فيضانه وفى جفافه ، حتى لا يفجأ فى قدوم فيُهلِك ، ولا يفجأ فى ذهاب فيُفْجِع ، وقد أشار إلى ذلك الحافظ أبو الحسن محمد بن الوزير ، فذكر تدرج زيادة النيل إصبعاً إصبعاً بقوله :

أرى أبداً قليلا من كثير ... وبدراً فى الحقيقة من هلال
فلا تعجب فكل خليج ماء ... بمصر مسبِّبٌ لخليج مال
زيادة إصبع فى كل يوم ... زيادة أذرع فى حسن حال!

١٦ — يقول ياقوت فى معجمه : « وفى النيل عجائب كثيرة ، وله خصائص لا توجد فى غيره من الأنهار[2] » . . . ولذلك أشار فى موطن آخر إلى أن هناك أماكن سميت باسم النيل تسامياً إلى فضله — وهيهات فهناك بليدة فى سواد الكوفة يخترقها خليج حفره الحجاج بن يوسف وسماه بنيل مصر ؛ والنيل أيضاً نهر من أنهار الرقة حفره الرشيد ،

---

(١) حسن المحاضرة للسيوطى ج ٢ ص ٢٤١ .
(٢) ج ٨ ص ٣٦٣ .

ولا يبعد أبداً أن يكون قد سُمِّى أيضاً باسم النيل المصرى ، لأن نيل مصر يضرب فى أحشاء الماضى ستة آلاف عام ! . . . ولأن الصغير يتشبه دائما بالكبير ، فأين نهير الرقة من نهر النيل الذى ذكرت « دائرة معارف القرن العشرين » لوجدى بك أن طوله يبلغ ستة آلاف وخمسمائة كيلو متر ؟ . . . (١)

١٧ — وهل سمعت حديث البلاغة والأدب والبيان عن مصر ، وعن شريان حياتها وسبب بقائها « النيل » ؟ . . . هل سمعت الكلم الجوامع ، تتردد على الأفواه صاحبة اللسَنِ والفصاحة ؟ . . .

هذا شيخ البلغاء وفحل الخطباء بعد نبى الإسلام ، على بن أبى طالب ، رضى الله عنه وأرضاه ، وكرم الله وجهه ، يقول لمحمد بن أبى بكر الصديق رضى الله عنه لما أرسله إلى مصر :

« إنى وجهتك إلى فردوس الدنيا » ! . .

وهذا هو الإمام الشافعى رضى الله عنه يقول — وما أبلغ ما يقول مبنى ومعنى ، ومنطوقاً ومفهوما ! — : « ثلاثة أشياء دواء للداء الذى لادواء له الذى أعي الأطباء أن يداووه : العنب ، ولبن اللقاح ، وقصب السكر ، ولولا قصب السكر ماأقمت بمصر » وأرجو أن تلاحظ معى أن الأشياء الثلاثة التى ذكرها الإمام الشافعى دواءً للداء العَصِيِّ يرجع الفضل فيها إلى النيل ، فالعنبُ فاكهة تنبت بشطيه ، وتنمو فى تربته ،

---

(١) البعض يقول ستة آلاف ، والبعض يقول ستة آلاف وخمسمائة ، و البعض الأخير يقول ستة آلاف وسبعمائة .

و بيئته ، وتتغذى بمائه وغرينه ، وتزدهر فى جوه وهوائه ، حتى إن أهل مصر يعتقدون أن فاكهة « العنب » المصرية لا تكمل حلاوة مذاقها ، ولا يتم جمال طعمها ، إلا إذا شربت من ماء النيل الفياض ، الممتلىء بالغرين الأحمر ، سببِ الخصب ووسيلة النماء . .

و « لبن اللقاح » يخرج من حيوان نشأ فى حمى النيل ، وشرب من مائه ، وانتفع بغذائه ، ولولا ماء النيل ونباته ما بقيت الحياة لذلك الحيوان ، ولا جاد باللبن الشهى الشامل للغذاء والدواء ؛ ولألبان مصر شهرة عالمية تحسدها عليها أمم كثيرة ، ولكن الإهمال يستر الجمال ! .

و « قصب السكر » ثالثة النعم فى قول الإمام الشافعى ، وناهيك بالقصب المصرى شكلاً وطعماً وإنتاجاً ، وخاصة فى الصعيد الأعلى ، حيث يُعتبر « قصب السكر » مصدر ثروة ونعمة لا يستهان بهما إلا عند الجهلاء أو الأغرار .

وهذا هو « القاضى الفاضل » الكاتب المشهور فى تاريخ الأدب العربى ، يكثر من الحديث الأدبى المنمق عن النيل فى كثير من فصوله ومقالاته ، ومن بينها قوله : « وأما النيل فقد ملأ البقاع ، وانتقل من الإصبع إلى الذراع ، فكأنما غار على الأرض فغطَّاها ، وأغار[1] عليها فاستقعدها وما تخطاها ، فما يوجد بمصر قاطع طريق سواه ، ولا مرغوب مرهوب إلا إياه » ! .

---

(١) غارَ : من الغيرة ، وأغار : من الإغارة وهى الهجوم .

وأعتقد أن الشرح لذلك الوصف ينقص قيمته ، ويذهب روعته ، فعد أنت إليه ، واعتمد فى فهمك عليه .

وهذا هو ابن فضل الله العمرى يقول فى « مسالك الأبصار » عن النيل : « إنه إحدى الكبر ، وأولى العبر ، وآية من آيات الله فى أرضه ، وعجيبة لمن تأمل فى خلقه ، ساقه الله تعالى إلى مصر ، وأحيا به بلدة ميتا ، وسقاه أمة عظمى ، وإن لم تكن هى المتفردة بنفعه فإنها كالمتفردة به ، لعظيم منفعتها منه ، وعميم مصلحتها به ، يجىء إليها أحوجَ ما كانت إلى مجيئه ، وينصرف أحوج ما كانت إلى انصرافه ، وذلك تقدير العزيز العليم ( ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاء ، وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيم ) » .

١٨ — ومن فضائل مصر (وادى النيل) أنها غنية بنفسها ، تستطيع أن ترفع يدها إذا أرادت وأحسنت تصرفها عن الحاجة إلى الاستعانة بسواها ، فقد أودع الله فيها من الكنوز والمنافع ما لو تفنن أهلوه فى استخدامه واستغلاله وحفظه لأغناهم وكفاهم وأعلاهم ؛ ولذلك ذكر بعض أهل العلم أنه ليس فى الدنيا شجرة إلا وهى بمصر ، عرفها من عرفها ، وجهلها من جهلها ، ويوجد بمصر فى كل وقت من الزمان من المأكول والمأدوم والمشموم وسائر البقول والخضر ، وجميع ذلك فى الصيف والشتاء ، ولا ينقطع منها شىء لبرد ولا حر .

ويقول الجاحظ فى مصر : إن أهلها يستغنون عن كل بلد ، حتى لو ضُرب بينها و بين بلاد الدنيا سور لغَنِىَ أهلُها بما فيها عن سائر بلاد الدنيا ! . .

ومن قبل « الجاحظ » قال أبو نضرة الغفارى ، وهو من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مصر خزائن الأرض كلها ، ألا ترى إلى قول يوسف عليه السلام : ( اجعلنى على خزائن الأرض إنى حفيظ عليم ) فأغاثه الله بمصر يومئذ ، وخزائنها كل حاضر و بادٍ » ! .

ومن هنا قال ابن عباس رضى الله عنه : « سميت مصر بالأرض كلها فى عشر مواضع من القرآن » ! . . وفى إطلاق اسم « الأرض » على مصر ، ومصر بعض هذه الأرض ، إشعار بأنها تحوى خير ما فى الأرض ! .

ولقد ذهب بعض المفسرين إلى أن كل قرية من قرى مصر تصلح أن تكون مدينة ، ويؤيد ذلك بقوله تعالى على لسان قوم فرعون: « وَابْعَثْ فِى الْمَدَائِنِ حَاشِرِين » . وذلك لأن فرعون وقومه يريدون أن ينشروا الإعلان عن اجتماعهم الأكبر فى كل مكان من الوادى ، فى كل مدينة وكل قرية ؛ ولقد لفت هذا الفهم نظرى إلى ما يمكن أن تصل إليه القرية المسكينة فى وادى النيل المضيَّع ، إذا أخذت حقها من الإصلاح والعناية والرعاية ... إنها من غير شك تصبح مدينة من

المدن ، لا يعيبها أن تصغر مساحتها أو يقل عدد سكانها ، لأن مستواها سيكون كمستوى المدينة الكبيرة سواءً بسواء .

وإذا كان القوم يحدثوننا عن ريف أمريكا مثلا ، ويقولون لنا إن قراها كمدنها من حيث النظافة وأسباب المدنية ووسائل الحضارة ، فليت شعرى أى سحر عند أمريكا حتى تفعل هذا ، ونعجز عنه نحن فى وادى النيل الخصيب ؟ . . وكيف وعندنا النيل الجليل ! ؟ . .

١٩ — وليس خير مصر مقصوراً عليها ، ولا محصوراً فيها وحدها ؛ إنها لتمد يدها إلى جاراتها وشقيقاتها بخيرها وبرها ، دون منٍّ أو أذى ، لأنها تُرضى بذلك عقيدتها وطبيعتها السمحة الطيعة . جاء فى خطط المقريزى :

« ومن فضائل مصر أنها تمير أهل الحرمين وتوسع عليهم ، ومصر فُرْضَة الدنيا ، يُحمل خَيرُها إلى سواها ، فساحلها بمدينة القلزم يحمل منه إلى الحرمين واليمن والهند والصين وعمان والسند والشحر ، وساحلها من جهة تنيس ودمياط والفرما فُرضة بلاد الروم والأفرنج وسواحل الشام والثغور إلى حدود العراق .

وثغر اسكندرية فرضة أقريطس وصقلية وبلاد المغرب ، ومن جهة الصعيد يحمل إلى بلاد الغرب والنوبة والبجة والحبشة والحجاز واليمن .

وبمصر عدة من الثغور المعدة للرباط فى سبيل الله تعالى ، وهى

البرلس ورشيد والاسكندرية وذات الحمام والبحيرة وإخنا ودمياط ، وشطا وتنيس والأشتوم والفرما والورادة والعريش وأسوان وقوص والواحات . . . » .

٢٠ — حتى خيل مصر يا بنى مصر . . حتى خيلها قد سبقت سواها ، فمتى تسبقون سواكم ، أو على الأقل تنافسون غيركم إن لم تسبقوهم ؟ . متى متى ياأحفاد الغر الميامين ، وأخلاف الأباة الصيد ؟ ! .

روى أن الوليد بن عبد الملك عزم على إجراء الخيل للمسابقة فى الحلبة ، فكتب إلى الأمصار يطلب أن يوجهوا إليه بخيار خيل كل بلد ، فلما اجتمعت الخيل عنده عُرضت عليه ، فمرت أمامه الخيل المصرية ، فلما رآها دقيقة العصب لينة المفاصل والأعطاف قال : هذه خيل ما عندها طائل . فقال له عمر بن عبد العزيز : وأين الخير كله إلا لهذه ؟ . فقال له الوليد : ماتترك تعصبك لمصر يا أبا حفص ؟. فلما أُجريت الخيل جاءت المصرية كلها سابقة ما خالطها غيرها ! ! . . .

ولعله من الخير أن أنتهز الفرصة هنا لأشير إلى خطأ وقع فيه بعض المفسرين فى تفسير قوله تعالى : « سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ » . . إذ ادعوا أنها مصر ، وهذا خطأ فاحش ، وقد نص ابن الصلاح على أن ذلك الغلط قد نشأ من التصحيف ، لأن الوارد عن مجاهد وغيره من مفسرى السلف فى قوله تعالى : « سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ » أن المراد « مصيرهم »

أى نهايتهم ومستقرهم ، فصحفت الكلمة إلى «مصر» ، وهى من ذلك الحكم براء[١] .

٢١ — ومن مزايا مصر بلدِ النيل ماذكره «المسعودى» فى تاريخه عن زيد بن أسلم فى تفسير قوله تبارك وتعالى فى سورة البقرة : «وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ» . فقد قال إن المراد بالجنة فى الآية «مصر» ، إن لم يصبها مطر زكت ، و إن أصابها مطر أضعفت ، أى أتت بالضعف فى نتاجها ! .

وليس ذلك بعجيب ؛ فالواقع يؤيده ، والتاريخ يشهد له ، وقد ورد عن كعب الأحبار : «من أراد أن ينظر إلى شبه الجنة فلينظر إلى أرض مصر إذا ازدهرت» ! .

كما ورد عن عبد الله بن عمرو بن العاص : «من أراد أن يذكر الفردوس ، أو ينظر إلى مثلها[٢] فى الدنيا ، فلينظر إلى أرض مصر حين يخضرّ زرعها ، وتنوّر ثمارها» ! .

ولعل هذا هو الذى جعل «المقريزى» فى خططه يذكر فيما ذكر

---

(١) راجع حسن المحاضرة ج ١ ص ٥

(٢) الضمير راجع إلى جنة الفردوس .

عن « مصر » أنها مشتقة من مصرت الشاةَ ، إذا أخذت من ضرعها اللبن ، فسميت مصر لكثرة ما فيها من الخير مما ليس فى غيرها ، فلا يخلو ساكنها من خير يدر عليه منها ، كالشاة التى ينتفع بلبنها وصوفها وولادتها[٣] . . .

٢٢ — ومن فضائل مصر — بلد النيل — أن رسول الإسلام عليه الصلاة والسلام قال فيها ؛ كما أخرج ابن عبد الحكيم بسند صحيح : « إنكم ستقدمون على قوم جعد رءوسهم ، فاستوصوا بهم خيراً ، فإنهم قوة لكم ، و بلاغ إلى عدوكم بإذن الله ( يعنى أهل مصر ) .

كما أن الرسول العظيم عليه الصلاة والتسليم تسرَّى من أهلها ، ووُلد له من نسائها ، ولم يولد له ولد من غير نساء العرب إلا نساء مصر ، فقد أنجبت له السيدة « مارية » المصرية النيلية بولده الحبيب « إبراهيم » ؛ وكان تسريه بها ، وولادتها له ، وهدايا المقوقس معها ، من الأسباب التى زكّت روابط الجماعة المسلمة الأولى بمصر التى فُتحت باسم الإسلام ، واستضاءت بنور الإسلام ، وجعلت معقد عزتها فى نصرة الإسلام على مدى الأيام . . .

ويضاف إلى ذلك أن كثيراً من المصادر تشير إلى أن السيدة

(١) ج ١ ص ٢٢

« مارية » قد أسلمت مع أختها[١] التي أُرسلت معها ضمن هدية المقوقس ، وكانت استجابتها للإسلام سريعة عاجلة ، شأن المتهيء لاستقبال النور عند سطوعه ، وقد سبقت « مارية » أختها في إسلامها ، ولذلك اختارها النبي لتسريه بها ، وفضلها على أختها ، مع استوائهما في الجمال والمظهر ، وصدق الحق إذ يقول : « وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ، أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ » . . .

تقول رواية التاريخ : فلما نظر الرسول صلى الله عليه وسلم إلى مارية وأختها أعجبتاه ، وكره أن يجمع بينهما ، وكانت إحداهما تشبه الأخرى ؛ فقال : اللهم اختر لنبيك ! . فاختار الله له مارية ، وذلك أنه لما قال لهما : اشهدا أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله ؛ بادرت مارية فتشهدت وآمنت قبل أختها ، ومكثت أختها ساعة ، ثم تشهدت وآمنت ، فاختار النبي مارية لذلك ، ووهب أختها[٢] .

٢٣ — ومن فضائل مصر بلد النيل أن « الطور » جزء منها ، وداخل في ملكها ، والطور هو الوادي المبارك المقدس الطيب ، الذي تجلى فيه نور الإله ، وسعى إليه موسى للقاء مولاه ، حيث سمع كلامه

---

(١) بعض الباحثين ينكر أن مارية قد أسلمت .

(٢) هناك خلاف في اسم الشخص الذي أهدى إليه النبي صلى الله عليه وسلم أخت مارية ، قيل أهديت إلى حسان بن ثابت ، وقيل أهديت إلى جهم بن قيس العبدري ، وقيل أهديت إلى محمد بن مسلمة الأنصاري ، وقيل أهديت إلى دحيه بن خليفة الكلبي .

وغرق فى ضياه ، وقد ذكره القرآن الكريم وأشار إليه فى جملة آيات مقروناً بالتكريم والتمجيد ، فقال فى سورة البقرة :

« وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ » .

وقال فى سورة مريم : « وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ، وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا » .

وقال فى سورة طه : « فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَامُوسَى ، إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِي الْمُقَدَّسِ طُوًى ، وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى » .

وقال فى سورة القصص : « فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِي الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَامُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ » .

واحتفل القرآن له ، وعظم من شأنه ، فافتتح أقسامه الكبرى به فى مطلع سورة من سوره سميت باسمه ، فقال : « وَالطُّورِ ، وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ ، فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ ، وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ، وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ، وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ، إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ، مَالَهُ مِنْ دَافِعٍ » .

كما أن فى آيتين من آيات القرآن إشارةً إلى النيل ، مع تذكير بفضل الله فى عذوبة مائه ، وحفظه من ملوحة البحر الملح ، فذلك حيث يقول القرآن الكريم : « مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ » . وحيث يقول : « وَهُوَ الَّذِى مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخاً وَحِجْراً مَحْجُوراً » . وحيث يقول : « وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُباً » .

قال أهل العلم : إن مجمع البحرين — وهو البرزخ — فى مصر ، وقالوا : إنه ما بين القلزم والفرما ، ولا مانع أن يكون المراد بالعذب الفرات فى الآية الثانية السابقة هو « النيل » ، وأن يكون المراد بالبحر الملح الأجاج : هو البحر الأبيض المتوسط ، وإنما أطلق على النيل هنا اسم « البحر » مع أنه نهر تغليباً للبحر عليه ، كما هو المعروف من قواعد اللغة العربية .

٢٤ — ومن ظلال التكريم القرآنى لمصر بلد النيل أن من أهلها مؤمنَ آل فرعون الذى سبق بالدعوة إلى الخير ، والأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، فكان من المفلحين ، ومن بين حديث القرآن الكريم عنه قوله : « وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ

إِيمَانَهُ : أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَنْ يَقُولَ رَبِّىَ اللهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِباً فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقاً يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِى يَعِدُكُمْ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ » إلى آخر الآيات فى سورة غافر .

ومن أهل وادى النيل «آسية» امرأة فرعون التى لم يصدها طغيان زوجها ولا ظلم بيئتها عن الاستجابة لربها والإيمان به ، وإيثار ما عنده على ما عند الناس ، حتى جعلها الله سبحانه مثلاً أعلى للمرأة المؤمنة الصابرة المحتسبة ، فذلك حيث يقول القرآن : « وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِى عِنْدَكَ بَيْتاً فِى الْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِى مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ » .

وإذا كان فرعون الجبار سيئة كبرى ووصمة سوداء فى تاريخ مصر السحيق، فإن أمثال هذه المؤمنة تصحيح للوضع ، ورد لاعتبار مصر المؤمنة إليها ، و « كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللهِ وَاللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ » .

ومن أهل وادى النيل ماشطة بنت فرعون التى آمنت بموسى ، فمشطها فرعون الطاغية بأمشاط الحديد وهى صابرة ثابتة على إيمانها بالله

ومن أهل وادى النيل سحرة فرعون الذين استجابوا لربهم ، وسارعوا إلى صراطه حين لاح لهم ، وكفروا بالطغيان حين استبان لهم

ضلاله ، وقد آمنوا دفعة واحدة و بسرعة سريعة وقتما بدا لهم دليل اليقين ، ولا تُعلم جماعة أسلمت فى ساعة واحدة أكثر من جماعة السحرة ، وكان عددهم مائتى ألف وأربعين ألفاً ومائتين وخمسين إنساناً[١] .

٢١ — ومن فضائل مصر التاريخية المتعطرة بنفحات إسلامية أن رسول الإسلام عليه الصلاة والسلام كتب كتباً إلى الملوك فى المشارق والمغارب ، يدعوهم إلى كلمة الإسلام ، ويحضهم على الهدى والإيمان ، فمنهم من مزق كتابه فمزق الله ملكه ، ومنهم آذى حامل الكتاب ، ومنهم من رد رداً غير كريم ، ومنهم من أهمل وتغاضى ، وبعضهم أسرف فى لؤمه ووقاحته ؛ ولكن النبى عليه الصلاة والسلام أرسل إلى حاكم مصر ( المقوقس ) كتاباً ، فأجابه عليه جواباً كريماً ، وأهدى إليه ثياباً وكراعاً[٢] وجاريتين من القبط ، هما : مارية وأختها ، وأهدى إليه عسلاً من عسل بنها المشهور .

وتلطف النبى صلوات الله عليه ، فقبل هدية المقوقس الآتية من وادى النيل المبارك ، الذى جعله الله كما فى الأثر كنانته فى أرضه ، فكان ذلك التقبل النبوى تكريماً لمصر ، وتعطيراً لوادى نيلها بذكرى

(١) خطط المقريزى جـ ١ ص ٢٥ .

(٢) الكراع فى الأصل أطراف الدابة ، والمراد هنا بغلة وحمار أرسلهما المقوقس ضمن هديته إلى الرسول عليه الصلاة والسلام .

الخير والثناء ، وتسرى النبى بمارية المصرية النيلية ، فأولدها إبراهيم عليه السلام ، وأهدى أختها إلى حسان بن ثابت ، فأولدها عبد الرحمن ابن حسان ؛ وسأل الرسول عن عسل مصر الذى أهدى إليه من رحاب النيل ، فقيل له : إنه من بنها ، فقال : اللهم بارك فى بنها وعسلها ؛ فعسلها كما قيل خير عسل أهل مصر .

## يا بنى مصر . . .

يا بنى مصر ، يا أبنــاء النيل ، يا أهل الوادى الخصيب ، يا ورثة الحوض الـكريم . . لقد علمتم أوثق العلم أن مصر بنيلها تحيا ، وتدوم وتبقى ، وأنهــا بدونه قطعة من الصحراء ، تُهلك وتميت ، وأنه هو واهبها بتقدير ربها ، فـكيف تُضيع مصر واهبها ، وكيف يفرِّط أبناؤها فى محييها ومخصبها ؟

وكيف ينامون لحظة عن إنسان عينها وشريان قلبها ؟ . .

إن الواجب عليـكم أن تعرفوا قيمة ما وهبكم الله من آلاء وخيرات ، حتى تـكونوا أهلاً لهـا ، وجدراء بهـا ، و إلا أقمتم الدليل من أنفسكم بتفريطـكم فيها ،وجهلـكم لقيمتها ، على أنـكم لا تستحقونها ؛ وشُـكر النعم دائماً يكون بتقديرها وتدبيرها ، والإخبات إلى منشئهـا ومبدعها ، و إلا قلبها نقماً ومحناً : « لَئِنْ شَـكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّـكُمْ ، وَلَئِنْ كَـفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ » .

إن النيل يفى لنا فى كل عام ، لا يتخلف عن الجريان مرة ؛ أفلا نـكون معه أوفيـاء ؟ وهل الجزاء إلا من جنس العمل ؟ « هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ، فَبِأَىِّ آلَاءِ رَبِّـكُمَا تُـكَذِّبَانِ » ؟ .

قد يُمسِك النيل فيضَهُ قليلاً أو رويداً ، ولعله يراد بذلك أن تتنبهوا وتعتبروا ، وتقدروا النعمة حق قدرها ؛ وقد يزداد فيضه ليحذركم وينذركم ، ويخوفكم من انقلاب النعمة نقمة .

فأين الاعتبار يا أولى الأبصار ؟ . .

اجعلوا « النيل » شغلكم الشاغل ، ومعقد عزكم العاجل والآجل ، واعبدوا ربكم بحفظه وذكر نعمه ، واشكروه بالذود عنه ، والتضحية فى سبيله ، وذكِّروا بعظمته وقيمته الأبناء فى المهود والمدارس والمعاهد والجامعات ، واملأوا الأرجاء والآفاق بأغانيه وأناشيده ، واجعلوا يوم وفائه عيداً شعبياً سعيداً ، تمتزج فيه الوطنية بالدين ، وتتلاقى أفراح الأرض بأفراح السماء ، ليؤمن الجميع بأن النيل هو سر من أسرار الله ، توجد به الحياة ، فيجب أن نحرص عليه كما نحرص على الحياة . .

ألا هل بلغت ؟ اللهم فاشهد ، فليبلغ الشاهد منكم الغائب ، فإن الأمر جلل ، وإن الخطب خطير . .

***

إن النيل هو « اليم » ، وحينما نراجع استعمال « اليم » فى القرآن الكريم نجد أمراً عجباً . . نلاحظ أن أغلب هذه الاستعمالات وردت فى مقام الانتقام والتأديب بهذا النيل ، أو بهذا اليم الذى لم يشكره الجاحدون ، فجعله الله مقبرة للمجرمين ، بعد أن أبوه جنَّاتٍ للشاكرين ؛ انظروا واذكروا ، واسمعوا ثم انتفعوا ؛ يقول القرآن الكريم :

« فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِى الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ » .

« فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ، وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى » .

« لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفاً » .

« فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ » .

« فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِى الْيَمِّ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ » .

فاحذروا يابنى مصر أن يصيبكم ما أصاب أقواما غيركم ، وإن شئتم طريق الهدى فذودوا عن نيلكم بالنفس والنفيس ، و بكل ماتملكون ، فإن أبى عليكم جبار مستبد أن تكونوا فى واديكم أحرارا ، وأسرف فى بغيه وطغيانه ، وأعذرتم إليه مراراً وتكراراً ، فاجعلوا النيل لعسفه مقبرة ، تبلع فى قاعها بغى كل شيطان مارد ، واجعلوا ماءه حميما وغساقا ، ويحموما وغسلينا على الغاصبين والمعتدين ، و يومئذ تدركون قيمة الحياة الكريمة الرفيعة ، وتذوقون طعم السيادة والعزة :

« وَلِلّٰهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ » .

إن المسلمين يؤمُّون البيت الحرام حاجين ومعتمرين ، فإذا عادوا إلى بلادهم حملوا من ماء زمزم المبارك عُلَباً يحفظونها تذكاراً فى بيوتهم ،

ويهدون منها إلى أصدقائهم ، ويطلبون بشربها البركة والشفاء من أمراضهم ، فليت أبناء مصر المسلمين بجوار هذا يحتفظون فى منازلهم بزجاجات متينة وثيقة مملوءة من ماء النيل بغرينه الغالى الثمين ، حتى يديموا التطلع والنظر إلى هذه الزجاجات فى أغلب الأوقات ، فلا يغيب عنهم التذكر والتفكر فى أمر النيل ، ووحدة النيل ، وعزة النيل ، وفضل النيل ! . .

إن منفعة ماء زمزم فى استعماله وشربه ، وعزة النيل فى تحريره وحراسته من أعـدائه ، وتخصيص مائه وخيراته لأبنائه فى الشمال والجنوب ، على السواء ، بلاتمييز أو استثناء .

فهل أنتم لذلك عاملون ؟ .

# واجبنا نحو النيـــل

قد تقولون بعد أن سمعتم منى ما سمعتم : وماهو واجبنا نحو النيل ؟ وماذا نعمل لنحقق المجد الذى تصف ، ونحفظ الميراث الذى تصوّر ؟ ..

ومع أن كل إنسان يعرف فى الحياة واجبه — وإن كان الكثيرون لايؤدون ذلك الواجب ؛ ومع أن قضية النيل بحقوقها وواجباتها ، ولوازمها وتبعاتها ، ومتاعبها وثمراتها ، واضحةٌ وضوح الشمس فى وسط النهار ، ومع أن الأقلام والألسنة أبدأت وأعادت فى الحديث عن هذه القضية ، فنحن لا نرى بأساً فى أن نعود إلى الحديث ونعود ، فالقضية كبرى ، والتذكير المستمر واجب :

« وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ » .

لقد أفضنا فى الحديث عن النيل وواديه إفاضة واسعة ، إن لم تُقنع فما ذنب الضوء الساطع فى ضحوة النهار إذا لم تشاهده عيون الذين لا يبصرون ؟! ..

وهم يقولون فيما يقولون : على قدر أهل العزم تأتى العزائم ؛ ويقولون : إن العظائم كفؤها العظماء .. وكلما زادت النعمة وعظمت تضاعف شكرها وجلت تبعتها ؛ ولقد انبسطت أمامنا بعد بحثنا السابق

وجوه النعمة ونواحى الفضل فى النيل هبةِ الله لعباده أبناء الوادى ، فما هو واجبهم على التحديد نحو ذلك النيل الجليل ؟ .

أولا : أول الواجبات علينا نحو ذلك النيل العظيم هو تحريره من غاصبيه ، وتوحيده فى الشمال والجنوب لمصلحة أهليه ؛ إذ لا يختلف عاقلان فى الدنيا أن ابن الشمال الذى يسمى « المصرى » أقرب إلى ابن الجنوب المسمى « السودانى » من قرب ابن بريطانيا الدخيل الوارش إلى ابن الشمال أو ابن الجنوب . فبين ابن الشمال وابن الجنوب صلات الدم والوطن والنيل واللغة والأخلاق والدين والآلام المشتركة والآمال المتحدة ، و بينهما و بين ابن انجلترا عوامل النفور والتضاد من نواحى الدم والوطن واللغة والأخلاق والدين والآلام والآمال ، فما يريد ابن انجلترا المتطفل على النيل إلا أن يكون سالباً لحرية ، أو غاصباً لحق، أو راكباً لمستذَل ، أو حالباً لبقرة مسخرة فى خدمة سواها ، وهى تدرى أو لا تدرى . . .

و إذن فيجب علينا ألا نبحث الآن عن طريقة الحكم فى الشمال والجنوب ، ولا عن مدى اتصالِ الأول منهما بالآخر ، ولا عن نوع تبعية الآخر للأول ، فذلك أمر ميسور ، إذا وُضع فى أيدينا لبحثه و إبداء الرأى فيه عرفنا صراط الرشاد والصواب عنده ، بلا عناء أو إبطاء ، ولكن المهم أولا وقبل كل شىء هو أن نرفع — طوعا

أو كرها — هذه اليد الثقيلة الخبيثة الأجنبية التى أفسدت علينا ديننا ووطنيتنا وأخلاقنا وعاداتنا وتاريخنا ، والتى اتخذتنا عبيداً خلال عشرات من السنين ، كانت كلها عجافا شداداً ، وكانت ظلماتٍ بعضها فوق بعض . .

وحين نُلقى بهذا الأجنبى الدخيل المفسد إلى خارج وادينا ، نفرغ نحن الأبناء الإخوة الأشقاء الأحبة لتوزيع ميراث إلهنا لنا بيننا ؛ و إذا كان المثل العامى يقول : « أنا وأخى على ابن عمى ، وأنا وابن عمى على الغريب » ، فكيف يكون الوضع إذا لم يوجد بين الأشقاء الأحباء ابن عم لهم ولا ابن خال ، و إنما الموجود بينهم دخيل متطفل ، جاء كالعلق الذى يمتص الدماء ، ويمتلىء بإفناء سواه ، ولا شرعية له ، ولا خير منه ، ومع ذلك يدس أنفه فى كل شىء ، ويحاول أن يسيطر على كل شىء ، ولا يقدم بعد ذلك أى شىء ! ؟ .

ثانياً : تثبيت معانى الأخوة وروابط الوحدة بين شطرى الوادى، بطرق عملية واضحة ، لا لبس فيها ولا التواء ، حتى لا يبقى ظن بأننا نتحدث عن « الوحدة » لرغبة طارئة أو شهوة عاجلة ؛ وأعتقد أن رجال الدين المثقفين المتحررين المخلصين البارعين المختارين المقتدرين على القول والكتابة ، والدعوة والإرشاد ، وضرب القدوة والأسوة ، بطرق العصر وأساليب المجتمع الحديث الطاهر ، ينفعون هنا أضعاف

أضعاف ما ينفع رجال السياسة أو القوة ، فهؤلاء الدعاة يجب أن ينبثوا فى أرجاء الوادى ، هداةً إلى طريق الصواب ، مرشدين بالحكمة والموعظة الحسنة .

ثالثاً : إحياء روح العبودية لله وحده فى أرجاء الوادى ، وذلك يكون ببث العقائد السليمة ، والمبادىء القويمة ، والعواطف الكريمة ، فى الصدور والقلوب ، فذلك أدعى إلى تحقيق الأخوة الكاملة والمساواة التامة ، فمتى تساوت الرءوس — حقاً وصدقاً — فى العبودية لله خالق الخلق ، وصاحب الأمر ، ومالك الملك ، فقد تساوت الجباه ، وأصبح الكل إخوة فى الله .

رابعاً : تأمين منابع النيل بقوات نيلية — أقصد مصرية وسودانية ، أو شمالية وجنوبية ، أو بحرية وقبلية — فلا فرق بين هذا وذاك ، وإنما يجب ذلك التأمين حتى لا يعتدى على النيل العزيز الغالى ، اليوم أو غداً ، من يتحكم فيه ، ويتحكم فى رقابنا وأرواحنا تبعاً لذلك .

إن مقياس « الروصيرص » يرتفع الآن قليلا فنسر ونفرح ، ونعلن البشريات هنا وهناك ، وينخفض قليلا ، فنمسك قلوبنا بأيدينا ، ونضع رءوسنا بين أكفنا ، ونضرع إلى العلى القدير أن يجنبنا ويلات الجدب والجفاف ، فماذا تكون الحال يا ترى لو سيطر

على منابع النيل غريب أو دخيل ؟ أو انفرد بحراسته جانب دون جانب ، فعملت الأيدى الأجنبية الخبيثة المجرمة بوسائلها الشيطانية وحيلها الإبليسية على أن يسىء ذلك الجانب حراسته للماء ، برضا أو إكراه أو خديعة ، فيصبح الجانب الآخر معرضاً لخطر الفناء ؟!..

قد يقال إن منابع النيل لا تزال « متوحشة مستأسدة » ، تشق طريقها إلى واديها فى شدة وعنف لا يستطيع أحد أن يخضعها أو يتحكم فيها مع وجودها ، ولكن من يدرى ؛ إن الغد سر محجب ، وقدرة البشر تتسع يوماً بعد يوم باتساع العلم والفن ، والله يعلِّم الإنسان كل حين ما لم يكن يعلم ، فلا يستحيل أن يأتى اليوم الذى يستطيع فيه بعض الناس إخضاع هذه المنابع المتأبية على الطاعة ، لوضع يسىء أبناء الوادى — وخاصة أهل الشمال — فى أرزاقهم وفى حياتهم ؛ ولذلك يجب كل الوجوب أن نحذر ، وأن نحترس ، وأن نعد للأمر عدته ، ولكل احتمال ما يناسبه .

خامساً : تعويد أبناء النيل الاعتزاز بمائه ، وعدم الإسراف فيه ، وتعليمهم أن ذلك الاقتصاد من تعاليم الإسلام ، لأن الإسلام ينفر من الإسراف فى الماء ، ولو كان مستعملا فى الطهارة والعبادة ، ولو كان المتطهر أو المتوضىء يغترف من نهر كبير ؛ وحين يتعلم الشعب هذا الاعتزاز ، ويتعود ذلك التقدير ، يصبح لماء نيله فى نظره اعتبار خاص ،

يوحى إليه به دينه ووطنه ، فلا ينام عن حراسته ، ولا يغفل عن التضحية فى سبيله . ومن الواجب أن يُغرس ذلك المبدأ منذ الصغر ، وفى مناهج التربية والتعليم والوعظ الدينى فى مختلف مناحيه .

سادساً : يتبع الواجب السابق أن نعمل بكل وسيلة لاستخدام كل قطرة من ماء هذا النهر المبارك فيما ينفع و يفيد البلاد والعباد ، فيجب أن نستخصب الأراضى « البور » ، وأن نـكثر من الخزانات ، وأن نتفنن فى أساليب الاحتفاظ بهذا المـاء الغالى ، حتى لا نسمح لقطرة من ماء النيل بالذهاب هدراً إلى البحر الملح ، إلا إذا كنا فى غنى تام عنها ، وتلك السيطرة على المـاء ممـكنة بفنون الهندسة والمعمار .

سابعاً : استغلال قوى الماء الـكامنة فى تيار النيل لتوليد الـكهرباء ، ونشر النور والضياء ، وتشغيل الأيدى العاطلة الخرقاء ، وزيادة الدخل ومضاعفة الثراء .

ثامناً : الانتفاع بكل ذرة من ذرات هذا ( الغرين ) العجيب الخصيب ، الذى يضيع أكثره ، ومن الممكن اتخاذ الوسائل العلمية والفنية لإعداد هذا الغرين سماداً رائعاً نافعاً ، يُحفظ و ينقل و يوزع و يستعمل عند الحاجة .

تاسعاً : تعبيد مالا يزال غير معبّد من النهر ، فلا تزال هناك أجزاء منه متمردة ، بشلالاتها أو صخورها أو منعطفاتها القاسية ، مما يعطل الملاحة والزراعة ، ووسائل الانتقال المريح .

عاشراً : تجميل شاطىء النيل فى الشمال والجنوب بمختلف وسائل التجميل التى تجمع بين التحسين والإنتاج ، ونريد بذلك أن يصير النيل الطويل المديد قطعة طبيعية فنية رائعة من تلاقى الماء الجارى ، مع الشجر العالى ، مع الهواء النقى ، مع الانفساح فى المدى ، فيتمتع أبناء الوادى بخيراته أولا ، وضيوفهم الأطهار ثانياً .

حادى عشر : يجب العمل بسرعة على رفع الأسماء والمظاهر الأجنبية — وخاصة الإنجليزية — من الأجزاء المختلفة للنيل ، وصبغ هذه الأجزاء بالصبغة المصرية الإسلامية ، التى تشعر أبناء الوادى بأنه لهم وأنهم له .

ثانى عشر : يجب وضع تاريخ مطوّل مفصل محبب عن النيل ، تعمره الحقائق ، وروح الوطنية ، ونفحات العقيدة ؛ ويُدرس هذا التاريخ بتوسع مستطاع فى المدارس والمعاهد والجامعات على اختلاف أنواعها ، حتى نقضى على ذلك الجهل الفاشى ، وحتى نغرس حب النيل فى الصدور من أول الطريق .

# هتاف فتى النيـــل

## هتـاف الشاب المصرى المسلم

الله أكبر . لبيك ، لبيك ، لبيك ! . . .

اللهم ربنا لك الحمد . لبيك ، لبيك ، لبيك ! . . .

الله أكبر والمجد للإسلام . الله أكبر عاشت دولة الإيمـان . الله أكبر تحيا أمة النيل . . .

يد الله مع الجماعة . ريح الجنة فى الشباب . إن الدين عند الله الإسلام . النيل والقرآن ، رزق وإيمان . النيل لنا ، والنصر دنا ، والعز بنا ، والمجد هنا ، فى وحدة الوادى .

لبيك يانيل لبيك . دم الشباب وقف عليك . أنت منحة الخلاق. أنت مصدر الأرزاق . لبيك ، لبيك ، لبيك ! . . .

***

قرآن وأوطان . معرفة وإيمان . عدل وإحسان . آمنَّا بالرحمن ، وكفرنا بالشيطان .

الله هادينا . والرسول داعينا . والقرآن مفتينا . والنيل وادينا . والعز نادينا . والقسط يرضينا . فى عالم الإنسان .

الله أكبر دامت عزمة الشباب . الله أكبر ذلت شرعة الذئاب .
الله أكبر كفرنا بغيره من الأرباب . الله أكبر سلم النيل من الأوصاب .
الله أكبر . لبيك ، لبيك ، لبيك ! . . .

***

دين ودولة . ورفق وصولة . سلام وعدة . وعزمة فى الشدة . كفاح بالسلاح . وثقة بالنجاح . ودعوة للصلاح . بالهدى والسماح .
إيمان بالله . واعتزاز بحماه ، وطهر فى الجباه ، وحكمة على الشفاه ، واعتدال فى الحياه . إلى الله إلى الله .
بالنيل تبقى الحياه . بالروح نفدى المياه . النيل ميراث الإله .
الله أكبر . لبيك ، لبيك ، لبيك ! . . .

***

تقديرنا للعالمين . إنصافنا للعاملين . قدوتنا للحائرين . إرشادنا للخاطئين . إنذارنا للمعتدين . رجومنا للطاغين . إكرامنا للعادلين .
أمرنا دنيا ودين ، كلاهما حق مكين . . .
الله أكبر . لبيك ، لبيك ، لبيك ! . . .

# عصارة البحث

لكل حديث مبسوط خلاصة ، تكون إيجازاً له ورمزاً ، وخلاصة ما بسطناه فيما يلى :

١ — النيل هو مفتاح قضيتنا ، فيجب أن نفرغ له ؛ نستخلصه ، ونوحِّده ، ونحميه .

٢ — النيل ذو تاريخ مجيد ، يفيض بإكبار الناس له ، و إسراف بعضهم بعبادته .

٣ — على فيضان النيل يتوقف كل عظيم من أمور الحياة فى الوادى .

٤ — أولع الشعراء منذ القدم بالتمدح فى النيل ، والتغنى به ، ودواوينهم عامرة بقصائدهم فيه .

٥ — قصيدة « شوقى » فى النيل يجب أن تُشرح وتدرس ، ففيها مفاخر ومآثر .

٦ — من الواجب على شباب مصر أن يحفظوا قصائد الشعراء فى النيل ، و يرددوها ، و يتأثروا بها ، و يستجيبوا لها

٧ — كرَّم الحديث النبوى الشريف مكانة النيل ، حتى جعله موصول الأسباب بجنات النعيم .

٨ — رفع القرآن الكريم شأن النيل ، لأنه ماء ، والماء سبب الحياة ، ولأنه نهر ، والأنهار نعمة كبرى من الله .

٩ — فى القرآن إشارات كثيرة إلى مصر وإلى نيلها ، وهذه الإشارات تزيد مكانة النيل وبلده رفعة وسموا .

١٠ — مفاخر مصرَ — وهى بلد النيل — لا تحصى ولا تستقصى فهى تعطر صفحات التاريخ القديم والحديث .

١١ — الله قد كذّب فرعون فى سائر ادعاءاته الباطلة ، ولكنه لم يكذبه حين قال : « أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهارُ تَجرِى مِنْ تَحْتِى أَفَلا تُبْصِرُونَ » ؟ .

١٢ — كَسَبَ النيل فخراً أى فخر لأنه حمل « موسى » وهو رضيع ، فصان أمانته ، وحفظ وديعته .

١٣ — فى وادى النيل نعم كثيرة جمة ، إن لم يشكرها أصحابها جاءتهم النقمة ، وما حادث قوم فرعون بمجهول .

١٤ — مصر تفيض بالعدد الهائل من أصناف الحبوب ، والبقول والزروع ، والأزهار ، والفواكه ، وغيرها .

١٥ — للنيل ميزات أشاد بها السابقون ، وكثير منها له صبغة دينية تضاعف تكريم النيل فى نظر المؤمنين .

١٦ — يأتى النيل عند الحاجة إليه فى الصيف ، ويجف عند عدم الاحتياج إليه فى الشتاء .

١٧ — ليس للنيل مثيل فى طوله مع عذوبته ، مع هدوئه ، مع مجيئه عند الحاجة إليه .

١٨ — من نعم الله الكبرى فى « النيل » أنه لا يفاجىء بطفرة فى المجىء ، أو الذهاب ، بل يتدرج فى الزيادة ، والنقصان .

١٩ — النيل نيلنا ، والوادى وادينا ، والدار دارنا ، والله ناصرنا ، ونحن أمة واحدة : « وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ » . فالجهادَ الجهاد ، والاتحاد الاتحاد ، والاعتماد على الله فى الكفاح والجلاد : « وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ » .

٢٠ — فليكن النيل اليوم شغلنا الشاغل ، ومعقد وحدتنا وعزتنا فى العاجل والآجل وقضيتنا الأولى فى نضالنا الحاضر .

ملحقات :

# النيـــل فى القرآن

« هذه خطبة ألقيتها فى مسجد الشامية بالقاهرة يوم الجمعة ١٣ رمضان ١٣٧١ هـ ( ٦ يونيه ١٩٥٢ م ) ولخصت فيها جوانب من حديثى عن النيل ، لتكون تذكيراً بعد تذكير ، ولعل إخواننا الخطباء يحرصون على توجيه الإرشاد الدينى هذه الوجهة الملائمة بين مطالب الدين ومطالب الوطن ، وأثبت نصها هنا لتكون ملحقة بالبحث السابق » :

الحمد لله ، أكرم البشرية وأحسن إليها ، وأفاض النعم وحاسب عليها : « لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابى لشديد » .

نشهد أن لا إله إلا أنت ، منك الإبداع والتدبير ، وإليك الانتهاء والمصير : « إنا نحن نرث الأرض ومن عليها وإلينا يرجعون » .

ونشهد أن سيدنا ومولانا محمداً عبدك ورسولك ، خير من صان آلاءك ، وشكر نعماءك ، فصلواتك اللهم وسلامك عليه ، وعلى دوحته الطاهرة ، وعصبته الظاهرة ، وجماعته الشاكرة « أولئك هم الوارثون » ، « إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين » .

يا أتباع محمد عليه السلام . . .

نحن أمة مسلمة ، تهتدى فى أمورها بهدى ربها ، وتستضىء فى مشكلاتها بنور كتابها ، وهى قد تعطى أمورَ الدنيا أو مطالب الحياة

بعض اهتمامها أو عنايتها ، ولـكنها تنطوى فى صميمها وأعماق طبيعتها على توقير كلمة الدين وتقديم واجب اليقين ؛ فـكيف إذا كان الأمر من الأمور جامعاً لحرمة الدين وعظمة الدنيا ؟ . إنها إذن من غير شك ترتجيه وتفتديه : « فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة ، والله يحب المحسنين » ... والناظر الآن فى أمورنا بعين التحقيق يرى أن موضوع « النيل » هو موضوع الساعة ، الذى يجب أن تتجه إليه العيون والقلوب ، وأن تقلق من أجله الخواطر والجنوب ، وأن تتلاقى عنده الأهواء والمشارب ، وإلا كانت الذلة والمسكنة وغضب الجبار . .

ولو أننا تغاضينا عن الميزات الجغرافية والاقتصادية والزراعية للنيل ، ولو تناسينا مؤقتاً أنه وريد الحياة وشريانها ، وأن مصر هبة ذلك النيل ، وهى بدونه قطعة من الصحراء ، لا زرع فيها ولا ماء ولا أحياء ؛ لو تناسينا كل هذا لـكان من واجبنا ونحن أمة قرآنية أن نتذكر دائماً أن هذا النيل ميراث من الله ، وضعه فى أيدينا ، وتضييعنا له تضييع لوديعة إلهية غالية . ولو أننا ألقينا على القرآن الـكريم نظرة فاحص لوجدنا للنيل فيه ذكراً عاطراً يأسر الألباب .

إن النيل ماء عذب طهور ، والقرآن يعلى مكانة المـاء ويزكيها : « وجعلنا من المـاء كل شىء حى » ، « والله خلق كل دابة من ماء » ويجعل القرآن المـاء نعمة مقصورة فى الآخرة على أهل النعيم :

« ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله قالوا إن الله حرمهما على الكافرين » ... والنيل نهر مبارك الغُدُوات والروحات ، والقرآن الكريم يتحدث عن الأنهار ممتناً بها فى مواضع كثيرة : « وهو الذى مد الأرض وجعل فيها رواسى وأنهاراً » . وقد جعل الأنهار فى طليعة الآلاء التى يتمتع بها أهل الفردوس المقيم : « إن المتقين فى جنات ونهر ، فى مقعد صدق عند مليك مقتدر » .

ولقد أعطانا القرآن وثيقة لاتقبل الجدال فى أن النيل لمصر ، وأنه كان لها بفروعه ووديه من سحيق الزمان ؛ يقول القرآن : « ونادى فرعون فى قومه قال يا قوم أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى أفلا تبصرون » . ومعنى هذا أن فرعون — بغض النظر عن كفره وطغيانه — قد نادى فى قومه مجاهراً بتقرير حقيقة واقعة فقال : « أليس لى ملك مصر » . ثم عبر تعبيراً صريحاً قوياً عن وحدة وادى النيل ، وأن النيل لايتجزأ ، وأن ماءه يجرى فى ملك مصر وتحت سلطان حاكمها من أقدم العصور ، فقال : « وهذه الأنهار تجرى من تحتى » . وهو يقصد بالأنهار الفروع التى تنبثق من النيل العظيم كالنيل الأبيض والنيل الأزرق وبحر الغزال وغيره ؛ ثم اعتمد فرعون فى التدليل لذلك على حجة محسوسة ملموسة فقال : « أفلا تبصرون » أفلا تشاهدون ؟ فأنا لا أحدثكم عن غائب عنكم ، ولكننى أحدثكم عن أمر مشاهَد قريب غير بعيد .

والقرآن الكريم يصور فى بلاغة معجزة قيمة الخيرات المنبثة فى وادى النيل ، ووجوب الاعتزاز بها والشكر لبارئها وعدم جحودها ، وإلا زالت كما زالت بالأمس عن قوم فرعون الذين طغوا فى البلاد ، فأكثروا فيها الفساد ، فصب عليهم ربك سوط عذاب ، فحرمهم من نعمة النيل الكبرى ، ومايتبعها من بركات ، وأعطاها لمستحقيها ومقدريها من عباده الصالحين ، فذلك حيث يقول : « كم تركوا من جنات وعيون ، وزروع ومقام كريم ، ونعمة كانوا فيها فاكهين ، كذلك وأورثناها قوماً آخرين » .

والقرآن المجيد قد كرم النيل فى القديم أفضل تكريم حينما جعل واديه مستراداً ومأوى لموسى وعيسى ومريم البتول ، وحينما جعله حاملا لموسى وهو رضيع ، فصان أمانته ورعى وديعته ، حتى بلغت مأمنها ، وانبثق نور الله منها : « وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه فى اليم ولا تخافى ولا تحزنى إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين » ...

يا أتباع محمد عليه السلام ..

هذا بعض الحديث عن النيل كما توحيه آيات القرآن المبين ، والنيل بعد ذلك هو سر بقائكم وسبب حياتكم ومعقد عزتكم ، واليوم تدور أمور وتجرى شئون قد يتقرر فيها مصير النيل لأجيال وأجيال ،

فتذكروا جيداً وعلى الدوام أن نيلكم هبة الله لكم ، وأنه نعمة الله الكبرى بين أيديكم ، وأنه قد أعطاكم وثيقة إلهية فى قرآنه بأنه من صميم أملاككم ، فإن توانيتم فى استخلاصه وصيانته ، فقد استوجبتم النقمة من ربكم ، والسبة فى تاريخكم ، واللعنة من أحفادكم : « فستذكرون ما أقول لكم وأفوض أمرى إلى الله إن الله بصير بالعباد » .

واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون . .

أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم .

سلوا ربكم التوفيق يستجب لكم .

# أساس الوحدة هو الإسلام

« وهذه خطبة ثانية ، ألقيتها بمسجد الشامية أيضاً يوم الجمعة ١٤ ذى القعدة ١٣٧٠ هـ ( ١٧ أغسطس ١٩٥١ م ) وفيها حديث عن الوحدة بين أبناء النيل ، أريد به أن نربط قضية الوادى الوطنية بعقيدة أهليه الدينية ، وهذا وجه المناسبة بين الكتاب وبين هذه الخطبة » :

الحمد لله ، كتب على نفسه الرحمة ، وأزال عن الناس بدينه الغمة ، وكفى بالله ولياً ، وكفى بالله نصيراً ؛ نشهد أن لا إله إلا أنت ؛ ضلت الطرق كلها إلا طريقك ، وفسدت المشارب كلها إلا رحيقك ؛ « ومن يهد الله فما له من مضل ، أليس الله بعزيز ذى انتقام » ؛ ونشهد أن سيدنا ومولانا محمداً عبدك ورسولك ، ما أمر حتى أقنع ، وما بنى حتى جمع ، فكان سيد الحكماء وخيرة المصلحين ، فصلواتك اللهم وسلامك عليه ، وعلى ذريته وأحبائه ، وصحابته وخلصائه ، وأتباعه وأوليائه : « أولئك سوف يؤتيهم أجورهم ، وكان الله غفوراً رحيماً » .

يا أتباع محمد عليه السلام . . .

طالما هتف الهاتفون منا ، وتغنى المتغنون فينا ، بأنه يجب أن تكون هناك وحدة قوية راسخة بين أبناء الوادى جميعاً ،

حتى تكون هذه الوحدة صخرة تتحطم أمامها أمواج الضعف والتخاذل ؛ ولا شك أن حديث الوحدة حديث عذب النغمات بالغ التأثير ، وليس هناك من العقلاء أو الأوفياء من يعارضه أو يمارى فيه ، ولكن السؤال الذى يجب أن يشغلنا جوابه هو : كيف نبنى هذه الوحدة ؟ وعلى أى أساس يجب أن تنهض وتقوم ؟ . .

أنقيمها على الجنس ؟ . . إن الجنس وحده لا يكفى ليكون أساساً للوحدة ، لأن الاعتزاز بالجنس غالباً عصبية وتفاخر كاذب ، ومصرع مستور ، وهؤلاء هم العرب فى جاهليتهم قبل الإسلام ، اعتزوا بعروبتهم ، وأسرفوا فى هذا الاعتزاز ، وشمخوا بأنوفهم على العالمين ، فلم يزدهم تعصبهم لجنسهم إلا فقراً ونكراً وشتاتاً ، ولما تولدت فى الأمويين نزوة العصبية العربية ، ومحاربة ما ليس بعربى ومن ليس بعربى ، كان ذلك نكبة على المجتمع الإسلامى ، إذ تولدت عنه « الشعوبية » فجاءت ببلاياها التى انبسطت فى عصور بنى العباس ، فأطاحت بدولة الإسلام الزاهرة ؛ وهذه ألمانيا فى العهود الأخيرة ، لا يعيبها منصف فى عظمتها وقوة شعبها وكثرة مآثرها ، ولكن عصبيتها وجنونها بما سمته الدم الجرمانى كان سبباً فى تقويض مجدها وسلطانها ؛ والإسلام بعد هذا كله لا يقيم للجنس فى تقديره ميزاناً ، فالناس كلهم لآدم ، وآدم من تراب ! ! .

أنقيم وحدتنا على اللغة ؟.. إن اللغة وحدها لا تكفى ، فكم من شعوب تتكلم لغة واحدة ، ثم لا يجمعها على رباط الوحدة جامع ، فهذه هى الهند تتكلم الإنجليزية كما تتكلمها بريطانيا ، وبين الدولتين عداء لا يحتاج إلى إفصاح ، وهذه هى أمريكا تشارك انجلترا فى لغتها ، ومع ذلك نرى بين الدولتين من الصراع والتنافس والحقد الدفين ما تسير به الأنباء ، وهما لا تتفقان — إن اتفقتا — إلا ظاهراً ، فالهدنة بينهما دائماً تكون على دخن ، وصداقتهما المفتعلة إنما تبدو لأغراض أو أمراض ، ثم تنطوى فى أودية الفناء ؛ وإن الإمريكى ليلقى الإنجليزى فيسمعه يرطن بلهجته ، ويردد عبارة كعبارته ، ولكنه لا يأنس به ، ولا يميل إليه ، ولا ينسجم معه ، لأن توافق اللسان لا يؤدى دائماً إلى توافق الجنان ، وكم رددت الشفاه كلاماً لا يصور ما تنطوى عليه الحنايا والصدور .

أنقيم الوحدة على أساس الاتحاد فى الموطن والاتصال فى الوادى ؟ قد يغرنا هذا الأساس فى ظاهره ببريقه ولمعانه ، ولكنه أيضاً لا يكفى وحده ، فكم من أناس يتجاورون فى المسكن ، وبين قلوبهم ما بين المشرق والمغرب ، وبين عقولهم من الاختلاف ما بين الأضداد ، وبين أهوائهم من الشتات ما يبعث الحسرات ؛ وحسبكم أن تتذكروا الأمة العربية فى جاهليتها ، فقد كانوا متجاورين متحدين فى الموطن ،

فما أغناهم ذلك فتيلا ، ولا أوجده بينهم من الوحدة أو الانسجام كثيراً أو قليلا ، بل تهارشوا تهارش الـكلاب ، وتناحروا تناحر الذئاب ! .

أنقيم الوحدة على أسـاس الاتحاد فى الآلام والآمال ؟ . . وكيف والآلام غير ثابتة ؟ فما نشـكو منه اليوم قد يزول غداً ، والعلة المسيطر الآن قد نتخلص منها بعد قليل أو طويل . وكيف والآمال متغيرة متقلبة ؟ فآمال الإنسان فى وقت الشدة غير آماله فى وقت الرخاء ، حتى قال البـاحثون إن الأمل شىء لا ضابط له ، وتيار لا يقف عند حد ، ولا يعرَف له اتجاه ، ولذلك قرر الأخلاقيون أن المثل الأعلى للطموح لا ينتهى . .

إذن كيف السبيل ، وماهو الأساس الذى يكفى ويشفى ؟ . . لابد أيها السادة من أساس يجمع الأرواح كما يجمع الأشباح ، ويقنع العقول كما يسيطر على القلوب ، ويؤلف بين الرغبات والأهواء ، كما يؤلف بين النبات والماء ، وتمتد جذوره فى طبقات الغبراء ، ثم تعلو فروعه حتى تبلغ السماء ؛ وهذا الأساس هو عقيدة الإيمان المستكنة فى الخواطر والصدور ، وملة الإسلام التى تظل أبناءها جميعاً بلواء العلى الغفور : « صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون » . وهـذا الأساس فى الوحدة هو الذى أمر به ربكم ، ودعا إليه نبيكم ، وردده كتابكم ، ونجح به أسلافكم : « إنما المؤمنون إخوة » ، « إن هذه

أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون » ، « واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ، واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا ، وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها ، كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون » . وليس بعد هذه العقيدة الإلهية قوة فى الأرض تحرك الإنسان نحو التضحية والجهاد ؛ فأنت تحدِّث المرء عن الافتخار بالجنس فيهزأ بهذه الرعونة الحمقاء ، وقد تحدثه عن سمو لغته ، فيرد عليك بأن اللغات كلها سواء ، وقد تحدثه عن رقعة الأرض ، فيقول : وهل بقيت فى العالم حدود أو سدود ؟ . ولكنك لو حدثته عن ربه الذى خلقه ، ونبيه الذى أرشده ، ودينه الذى مجده ، وعقيدته التى يحيا لها ويموت عليها ، لاستجاب لداعى الكفاح ونداء الإقدام ؛ فكيف بنا لو لاحظنا بعد هذا أن الإسلام قد شمل ماسبق من أركان وقواعد للوحدة بعد أن طهرها وصفاها ، وقوَّمها وأعلاها ، ففيه الجنسية السامية ، لأنه يعتبر أتباعه « أمة الله » ، وقد مجد اللغةَ العربية ، فأنزل بها كتابه المجيد ليضمن لها الخلود والبقاء ، وفيه وحدة الموطن وسلامة المسكن : « إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين » . وفيه اتحاد الآمال والآلام : « مثل المؤمنين فى توادهم وتعاطفهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد ، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى » .

ثم إن اتخاذنا الإسلام أساساً للوحدة يبارك هذه الوحدة ، ويعلى

شأنها ، إذ سيجعل قضية الوادى جزءاً من العقيدة ؛ فحب الوطن من الإيمان ، وللنيل شأن أى شأن فى نظر القرآن ، ومادامت وحدتنا الوطنية قائمة على القاعدة الدينية فقد أصبح بناؤها شامخا ، لأن أصلها ثابت وفرعها فى السماء .

يا أتباع محمد عليه السلام . . .

ليست هناك شبهة تعترض الوحدة القائمة على أساس العقيدة والإيمان إلا ما يردده الجاهلون أو المغرضون من أن السلطة الدينية قد تهضم حقوق الأقليات من غير الموافقين فى الدين ، وذلك بهتان قد يلتصق بكل دين إلا دين الإسلام ، فهو الدين الذى يقيم العدالة بين الجميع ، لافرق بين مسلم وغيره ، وهو الذى يجعل لأهل الكتاب ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين ، وهو الذى يحفظ الحرية لكل مستحق لها حتى يقول : « لا إكراه فى الدين » . فإن دعاكم الداعون يوما إلى الوحدة والبذل فى سبيلها ؛ مالاً كان المبذول أو عملا ، فقولوا لهم مصممين حازمين : إننا لانريدها قومية ولاوطنية فحسب ، ولكننا نريدها إسلامية ربانية ؛ ويومئذ يستجيب لكم العصى ، وينجلى أمامكم الخفى ، ويدنو منكم القصى ، لأن الله سيكون يومها معكم : « ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز » ؛ ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء ؛ واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون .

# وجعلنا من الماء كل شيء حي

« النيل ماء ، وقد أوضحنا خلال الكتاب كيف احتفل القرآن الكريم بالحديث عن الماء ، وفى ذلك إيحاء بالاعتزاز بالنيل ، وهذه خطبة عن الماء ألقيتها فى مسجد المنيرة بالقاهرة يوم الجمعة ٢٦ جمادى الثانية ١٣٦٩ هـ ( ١٤ إبريل ١٩٥٠ م ) ، وأثبتها هنا تكملة لجوانب الحديث عن موضوع الكتاب » :

لله الحمد ، دنا من الخلائق بلطفه ورحمته ، وعلا فوق الكائنات بقهره وقدرته ، سبحانه يختص برحمته من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم .
نشهد ألا إله إلا أنت ، لا تنتهى أسرارك ، ولا تحصى آثارك ، فلك فى كل شيء آية تدل على أنك الواحد القهار ، ونشهد أن سيدنا ومولانا محمداً عبدك ورسولك ، لم يفته النظر حتى فى دقيق الأمور ، ولم تخطئه الفكرة فى الغيبة أو الحضور ، فصلواتك اللهم وسلامك عليه ، وعلى آله الصافين صفاء المزن فى عليائها ، وأصحابه الآخذين من الحكمة بلوائها ، وأتباعه الغامرين الأرض بريها ودوائها ، أولئك هم الساهرون اليوم الفائزون غداً يوم تقوم الأشهاد : « تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً فى الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين » .

يا أتباع محمد عليه السلام . . .

أرأيتم هذا الماء الذى نشرب به ونستحم به ، ونغسل به ملابسنا وأدواتنا ، ونسقى منه دوابنا ، ونروى أرضنا ؟ . . إننا نراه بين أيدينا كثيراً فى الأنهار والجداول ، والأنابيب والمغاسل ، فنسرف فى استعماله ، ونستخف بأمره وحاله ، ولا يفكر أحدنا فى أن يقف لحظة مفكراً متأملا ، متدبراً كيف خلق الله هذا الماء ، ولماذا خلقه ، وما هى قيمته وجدواه فى هذه الحياة ؛ وقد أصبحنا من غفلتنا الطويلة البعيدة الأمد ، نستخف بأمر هذا الماء ، ونعده شيئاً تافهاً لا يقام له فى الحياة ميزان ، وذلك لأنه كثر وعم وشمل ، والنعمة الجليلة إذا شاعت فقدت روعتها و بهجتها بين الغفَلة الجهلة من بنى الإنسان ! . . . وهذا الماء الضائع المقدار والمكانة بيننا هو الذى جعله الخالق العظيم أصل الوجود والحياة ، وأحيا به الأرض بعد موتها ، وأخرج به من الثمرات رزقاً لكم ، وأخرج به نبات كل شىء : « ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد » . وقد تكرر ذكر الماء ، وسرد آياته وثمراته فيما يزيد عن ستين موضعاً فى القرآن الكريم ، ومن تلك الآيات قوله عز من قائل : « وجعلنا من الماء كل شىء حى » ، وهى كما ترون آية قصيرة ، نطالعها فى المصحف ، أو نسمعها من القارىء ، ثم نمر بها عجلين غافلين ، وقد يكتفى بعضنا فى فهمها بأن الله قد خلق من الماء المعروف كل كائن قابل للحياة والنمو ، من الإنسان والحيوان

والنبات ، دون أن يكلف نفسه مشقة التصور لمظاهر هذا الخلق العجيب فى مجالى الطبيعة الحافلة بشتى المشاهد والصور ، ولو أنه فعل لرأى كيف تنطوى هذه الآية الكريمة على الكثير الغزير من المعانى والأفكار . . .

هذا هو الماء مثلا يلقيه العلى الكبير ، والحكيم القدير ، على الأرض الخامدة الهامدة فإذا بها وهى جماد وتراب تحيا وتخضر ، وتتجدد وتتنضر ، ليثبت الخالق بذلك أنه قادر على أن يحيي الموتى : « وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت ، وأنبتت من كل زوج بهيج ، ذلك بأن الله هو الحق ، وأنه يحيى الموتى ، وأنه على كل شيء قدير » . وتتناول الحبة من الحبوب ، أو البذوة من البذور بين يديك ، فتراها يابسة جافة ، متماسكة غليظة ، ليس فيها أى مظهر من مظاهر الحياة ، أو علامة من علامات النمو ، ولكنك تسقيها بالماء ، أو تلقيها فى الأرض الرطبة ، فإذا بالحبة الصلبة الجافة تستحيل بقدرة قادر وجبروت قاهر إلى خضرة زاهية ، ونماء ملحوظ ، وارتفاع فى العلاء ، يحير ألباب العقلاء . . .

وإنك لترى الأزهار مغلقة أو ذابلة فوق أغصانها ، فإذا ارتوت أو أصابها طل الفجر أو ندى الصباح ، تفتحت وشمخت ، ونفحت بالطيب والشذا والعبير ؛ وحتى حين تُقطع الزهرة ، ويمنع عنها اتصالها

بشرايين غذائها ومسالك مائها تذبل وتميل إلى الفناء ، فلو رشت بالماء ، أو أمدت به ، لعادت رغم انقطاعها عن أصلها إلى النضرة والبهاء .

والحيوان من الدواب العجماء إذا أصابه الظمأ يكسل ويلهث ، ويميل إلى الإعياء ، ولا يتمكن من أداء وظيفته فى معاونة الإنسان على ضرورات حياته ، ولو استمر انقطاع الماء عنه لنفق ومات ، ولكننا إذا أمددناه بالماء نشط ، وعاد إلى أداء ما وكل إليه من عمل ، فى حركة وفتاء . . .

والإنسان نفسه يصيبه ما يصيبه من عناء العمل ، أو تعب الجهاد ، أو إرهاق الكفاح من أجل الحياة ، فتنكسر أجفانه ، وترتخى أعضاؤه ، ويتحلل جسمه ، ويتداعى إلى الكسل أو النوم أو الإعياء ، فإذا توضأ الإنسان أو غسل أطرافه أو استحم أو غمر جسمه بالماء فى نهر أو بحر خرج بفضل الماء — نعمة الله الكبرى — نشيطاً قوياً ، صالحاً لمعاودة الإنتاج ، ومن هنا كان الوضوء سلاح المؤمن ، لأنه يحفظه وينشطه ويقويه ، ويبرئه من الذنوب ويقيه من الآفات ، ولذلك قال الرسول عليه الصلاة والسلام : « من توضأ فأحسن الوضوء خرجت خطاياه من جسده حتى تخرج من تحت أظفاره » .

والثوب الملطخ ، والبيت الوسخ ، والحائط الملوث ، والآنية القذرة ، والمجرى الآسن ، والأرض الخبيثة ، كل هذا يسوء بمنظره ووساخته ،

فإذا جاءه الماء أحياه وأعلاه ؛ حتى الرمم فى الأجداث والأشلاء فى القبور التى يأكلها الدود ويأتى عليها الثرى تحيا بالماء . فقد ورد فى بعض الآثار أن ماء ينزل حين البعث بإذن الله من السماء على هذه القبور العتيقة البالية ، فإذا بهذا الماء السائل الرقيق اللين يفعل فعل السحر ، ويؤثر تأثير الإكسير ، فينبت من هذه الأجداث أصحابها أحياء كما كانوا يدرجون فى مختلف الأرجاء ! .

هذا هو الماء الذى بين يديك ، والذى تراه كثيراً فتسرف فيه ولا تهتم به ، ولا تلتفت إلى العبر المنطوية فى نعمة خلقه . إنه جليل القيمة عظيم النفع ، جعل الله منه كما رأيت كل شىء حى ، فهل فكرت أيها الإنسان أن ترعى للماء حرمته ، فلا تغرك كثرته ، فتلفتك عن جلاله وعظمته ، بل تستعمله فى حكمة وتدبير ، مستغلا له فيما ينفع ويفيد ، شاكراً لله أنعمه ، راجياً منها المزيد ؟ .

هل فكرت أن تطهر جسمك بماء الجداول والأنهار ، وقلبك بماء العظة والاعتبار ، وعقلك بماء التبصر والتدبر ، ونفسك بماء التقوى والهدى ، وبيئتك بماء التقويم والإرشاد ، ودنياك بماء النبل فى الخلق والشمم فى الطباع ، حتى تكون بذلك أحد الملائكة الإنسانيين الذين يمشون بين الناس مطمئنين ، لا يهولهم فزع الدنيا ، ولا يحزنهم الفزع الأكبر ، بل هم عند ربهم عباد مكرمون ؟ .

يا أتباع محمد عليه السلام . . .

كونوا كالماء الرائق فى صفائه فهو بلا لون ، وفى لينه فهو يسيل من رقته ، وفى عذوبته فهو رى العطشان وأمنية الظمآن ، وفى جريانه إلى كل جهة يريد لها الخير والبر والرى ، وفى قوته رغم رقته ، فالماء الهين اللين العذب النمير يفتت الصخور ويحطم الجلمود ، وإنكم لترون فى الشلالات الهادرة ، والأنهار الزاخرة ، والأمواج المزمجرة ، والتيارات القاهرة ، عبرة وعظة . . واتخذوا من الماء أيضاً سلاحاً سهل الاستعمال ، يطهر أبدانكم ويهدئ عواطفكم ، ويخطو بكم نحو طهارة الباطن بعد طهارة الظاهر ، والله يحب المتطهرين .

وتذكروا أن الله يريد بإشاعة الماء فيكم وتسهيل استعماله بينكم أن يطهركم به بكل طريق ، وبذلك يربطكم بمصدر هذا الماء وهو السماء ، وما اتصلت أسباب عبد بأسباب السماء إلا فاز بعز الدنيا ونعيم البقاء .

واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون .

أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم ، سلوا ربكم التوفيق يستجب لكم ؟

# تقدير من مفتى مصر الأكبر

## لكتاب « محاضرات الثلاثاء »

« نشرت مجلة (منبر الشرق) الغراء فى أول فبراير سنة ١٩٥٢ م هذه الكلمة لحضرة صاحب الفضيلة مفتى مصر الأكبر الشيخ حسنين محمد مخلوف فى تحية كتابى ( محاضرات الثلاثاء ) » :

« من عادتى أن لا أكتب عن كتاب إلا بعد أن أقرأ أكثر مباحثه على الأقل ، فإن استمالنى لمتابعة القراءة فيه بغزارة مادته ، وطلاوة عبارته ، وجودة معانيه ، ووضوح مراميه ، مضيت فيه إلى نهايته قرير العين ، منشرح الصدر ، مسرورا بما أتزود به من معارفه وأسلوبه ، ثم أدوّن فى أغلب الأحايين ملاحظتى ورأيى فى آخر صفحاته .

وقد أهدانى — مشكوراً — فضيلة الأستاذ أحمد الشرباصى كتابه « محاضرات الثلاثاء » وأنا أعلم أنه رجل موهوب ، ازدان علمه بتقواه ، وأسلوبه بالأدب الرفيع ، وقلمه بالسلاسة والرواء ؛ فعكفت على قراءته كعادتى ، فوجدت فيه طَلِبَتى ، ورجوت أن يتابع « محاضرات الثلاثاء » على نمطه ، ثم يخرج للناس من وقت لآخر كتبا ممتعة ، ينتظم منها سمط بديع النظام ، رائع الجمال ، ينتفع به الخاصة والعامة ، فى الدين ، والأخلاق ، والاجتماع .

وإنى أهنىء صديقى ، ومن له فى نفسى منزلة أبنائى ، بما وفق له فى هذا الكتاب ، وما هو بأول كتاب أخرجه للناس طلى العبارة ، قوى الأسلوب ، كريم المعانى ، شريف الأغراض .

وأسأل الله تعالى أن ينفع به ، ويديم توفيقه » .

حسنين محمد مخلوف

# تحية من صحيفة « المصرى »

« نشرت جريدة المصرى الغراء بتاريخ ١٣ إبريل سنة ١٩٥٢ الكلمة الآتية تحية لكتابى ( مذكرات واعظ أسير ) » :

« مذكرات واعظ أسير » كتاب أصدره أخيرا فضيلة الأستاذ أحمد الشرباصى المدرس بالأزهر ، واستعرض فى صفحاته التى قاربت المائتين تاريخ شهور طويلة مريرة ، قضاها خلف الأسوار فى سبيل عقيدته وإيمانه ، إبان الحوالك من ظلمات الإرهاب ، ولكنه ليس تاريخا كما ألف الناس ، فهو فوق سرد الحوادث ، ومتابعة الأحداث ، ورصد العبر والعظات ، واستخلاص النتائج من المقدمات أو المحات ، قِطع من قلبٍ مفطور ، صاغها صاحبها كلمات وسطورا ! ! . . .

لقد صاحب المؤلف فى كتابه المحنة الكبرى — محنة الإخوان المسلمين سنتى ١٩٤٨ ، ١٩٤٩ م — من بدايتها إلى نهايتها ، يعرضها عرض الخبير بها ، المصطلى بلهيبها ، ويحلل الأشخاص ، والمبادىء ، والدعوات ، تحليل الدارس العادل المحايد ؛ ويسجل ذكريات الرفاق والزملاء ، بأسلوب مشبوب ، وعبارة نزيهة عفة ، ويرقب الصغيرة قبل الكبيرة ، فى كل غمرة من غمرات المحنة ، فيجعلها درساً لنفسه ، وهديا لسواه .

ولا شك أن الذكريات — وخاصة ما كان منها أليما ، فى سبيل غرض نبيل — أعز ما يحن إليه الإنسان ، ويحرص على استرجاعه ، والسير فى خلاله ، ولا شك أن هذا الكتاب إذا كان اليوم صفحات تحذر وتنذر ، وتعلم وتهدى ، فهو فى غدٍ مرجعٌ من مراجع التاريخ ، الذى لن يجد الغد من أبنائه من يسجله ويصوره ويعلله كما يفعل ذلك من شهده واتصل به ؛ ومن هنا نرى أن ( مكتبة الخانجى ) قد أحسنت الاختيار فى نشر هذا الكتاب » .

# فهرس الكتاب